التفريق الدلالى بين البخل والشح فى ضوء النظم القرآنى

أ.د/ على محمد حميد حماد

أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد

بكلية اللغة العربية بالزقازيق

المقدمة

الحمد لله بما حمد به نفسه فى كتابه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله، وبعد:

فمن رحمة الله سبحانه وكرمه على عباده أن يسر القرآن الكريم للذكر، ودعاهم لتدبر القرآن العظيم، حتى تتكشف لهم أسراره وتظهر لهم أنواره التى تضئ لهم الصراط المستقيم ليواصلوا السير فيه بقلوب سليمة وجوارح مستقيمة وعقول واعية.

ومما لاشك فيه أن"هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ....." [الإسراء:٩] فهو يدل كل من تدبره على ما فيه من أغراض ومقاصد وأسرار لا يهتدى إليها من كان بعيدا عنه.

وهذه الحقيقة قد تحققت معى كما تحققت مع كل من كتبوا أو بحثوا فى علم ما من علوم هذا القرآن العظيم، فقد دلنى القرآن الكريم على بعض القضايا والمقاصد التي تدعونى إلى البحث عما فيها من أسرار، وتحقق ذلك بفضل الله وكرمه فى بحث الدكتوراه وغيره من البحوث التى كتبتها فى البلاغة القرآنية.

وهذا البحث الذى نعيش معه الآن" التفريق الدلالى بين البخل والشح فى ضوء النظم القرآنى" وقعت فكرته فى نفسى منذ سنوات هدانى إليه إحساس عجيب دعانى إلى طول تأمل وأنا أقرا قوله تعالى:(.. وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الحشر:٩] فقد وجدت لكل كلمة فى هذه الآيه مذاقا خاصا أحسه القلب والعقل والضمير.

ووجدت نفسى أكررقراءة الآية ومع كل مرة أقرؤها فيها أتأمل جانبا معينا من نظمها المعجز، فهناك الإشارة إليهم بالبعيد" أولئك" ثم قصر الفلاح عليهم بتعريف المسند" المفلحون" ثم المجئ بضمير الفصل"هم" فى نظم الآية.

ومرة ثانية أتأمل بناء الفعل"يوق" للمفعول ووقوعه على الشح دون غيره ثم إضافة الشح إلى النفس مع إضافة النفس إلى الضمير.

ومرة ثالثة أتأمل مجئ الأية على طريقة الشرط ومجئ جواب الشرط جملة أسمية دون الفعلية مثل "يفلح" و غيرها.

وعلمت أن" الشح" مشكلة نفسية، من وقع فيها هلك ومن نجى منها فاز وفلح، فأردت أن أتعرف على معنى الشح، والفرق بينه وبين البخل، وأيهما أخطر وما العلاقة بينهما.

وبدأت منذ ذلك الوقت أقرأ فى دلالة البخل ودلالة الشح والفرق بينهما ثم حصرت مواقعهما فى القرآن الكريم، وقرأت ما كتبه أئمة اللغة والتفسير فى ذلك ثم اطمأن قلبى إلى إمكان السير فى هذا الطريق وأهمية دراسة هذا الموضوع، لأنه يبزر جانبا من جوانب الإعجاز القرآنى، وهو ما يتعلق باللفظة القرآنية وخصوصية دلالتها فى سياقها وسر اختيار كلمة دون أخرى، ثم طريقة نظم الكلمة فى أسلوب أعجز الأنس والجن مجتمعين.

ودراسة الكلمة القرآنية فى سياقها ومقامها يكشف عن فروق دلالية دقيقة بين ألفاظ اللغة العربية ويظهر عظمة هذا القرآن فى تخير ألفاظه.

وهذا النوع من البحوث القرآنية لم يأخذ حفظه من الشهرة فيما يكتبه علماء المسلمين، وهو من البحوث الشريفة التى تظهر فقه اللغة وفقة الشريعة.

وقد سبق أن كتبت بحثا فى الفرق بين "الخلف" و"الوراء" فى القرآن الكريم وتبين أن هناك خصوصيات فى كل كلمة تميزها عن غيرها كالخصوصيات التى تقع فى بصمات البشر فتميزهم.

واتضح ان كثيرا من علما اللغة والتفسير قد يتسامحون فيفسرون الكلمة بغيرها فيقولون مثلا:"الخلف"هو"الوراء" ثم يقولون فى موضع آخر:"الوراء" هو"الخلف" ثم يقولون:"الشح" هو"البخل" إلى غير ذلك مما يتساهلون فيه وهذا إن صح فى تقريب المعنى فى لغة البشر فلا يصح عند دراسة كلام الله، لأن لكل كلمة دلالة خاصة لا تقوم بها غيرها[1].

وهذا البحث "التفريق الدلالى" بين البخل والشح فى ضوء النظم القرآنى" جاء فى مقدمه وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

ذكرت فى المقدمه دوافع اختيار الموضوع وأهميته، ومنهج البحث.

واشتمل التمهيد على حصر مواقع البخل والشح فى القرآن الكريم وبيان معنى كل منهما والفروق الدلالية بينهما.

وجاء المبحث الأول بعنوان: خصائص النظم القرآنى فى مواقع البخل.

ثم جاء المبحث الثانى بعنوان: خصائص النظم القرآنى فى مواقع الشح.

ثم جاءت الخاتمة مشتملة على أهم ما توصل إليه البحث.

---

[1] يراجع بحث الفروق الدقيقة بين مقامات الخلف والوراء فى النظم القرآنى للباحث فى العدد الثالث والعشرين من حوليه كلية اللغة العربية بالزقازيق عام ٢٠٠٣م.

وسررت على المنهج التحليلى الذى يراعى جوانب النظم البلاغى ويعتمد على السياق والمقام، لأنه يبزر سر اختيار كلمة بذاتها دون غيرها، ويبرز فى الوقت ذاته علاقة الكلمة بالسياق والمقام الذى وردت فيه وعلاقتها بالسورة كاملة سواء أكانت مكية أم مدنية.

والله نسأل أن يرزقنا سلامة القلوب وصلاح العقول حتى تصير أعمالنا إلى رضاه. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ.د/ على محمد حميد حماد
أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد
فى كلية اللغة العربية بالزقازيق

التمهيد

ذكر الحق سبحانه "البخل"، و"الشح" فى مواقع محددة فى القرآن الكريم، وقد ارتبط كل لفظ بسياقه ومقامه ارتباطا عجيبا، وكان من دقة القرآن المتناهية وبلاغته العالية، أن يرد اللفظان فى القرآن المدنى خاصة ووراء كل ذلك أسرار يجب أن يقف عليها الباحث حتى يدرك شيئا مما يجب عليه من معرفة بلاغة هذا القرآن العظيم.

وسوف أحاول فى هذا البحث المبارك أن أتعرف على خصوصية الكلمة فى سياقها ومقامها وسر اختيارها فى موقعها الذى وردت فيه، وكيف تعاونت هذه اللفظة مع أخواتها حتى انجلى المعنى وارتقى البيان.

وإنى لأدرك تقصيرى، وتدنى درجتى، وقلة همتى أمام بلاغة كتاب أعجز الإنس والجن مجتمعين ولكننى استمد العون من الله على فهم كلامه سبحانه، وأتذكر كلاماً طيبا قرآته قديما للإمام الشافعى طيب الله ثراه وأضعه الآن أمام عينى وفى قلبى وفى عقلى، لأننى أشعر أنه يخاطب وجدان الإنسان حين ينجو من نزغات الشيطان ويرغب فى عون المنان.

يقول الشافعى" فكل ما أنزل فى كتابه- جل ثناؤه- رحمة وحجة، علمه من علمه، وجهله من جهله، لا يعلم من جهله ولا يجهل من علمه. والناس فى العلم طبقات موقعهم من العلم بقدر درجاتهم فى العلم به، فَحُقَّ على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدهم فى الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله فى استدراك علمه نصاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله فى العون عليه، فإنه لا يدرك

خير إلا بعونه"[٢].رحم الله الشافعى ورزقنا إخلاص النية والرغبة إلى الله فى العون على علوم كتابه.

ونبدأ بعون الله فى حصر مواقع" البخل" و"الشح" فى القرآن الكريم:

أولاً: مواقع "البخل"

وردت مادة "بخل" أثنتا عشر مرة فى القرآن الكريم وجاءت مختلفة الصيغة، فقد وردت اسماً معرفاً "بأل" فى موضعين ووردت فعلا ماضيا فى ثلاثة مواضع، وودرت فعلاً مضارعاً فى سبعة مواضع وبيانها كمايأتى:

١ - قال الله تعالى"وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"[آل عمران: ١٨٠]

٢ - وقال سبحانه"الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا" [النساء:٣٧].

٣- وقال سبحانه:" فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ"[التوبة:٧٦]

٤ - وقال سبحانه"إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ، هَاأَنتُمْ هَؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن

---

[٢]الرسالة للشافعى ص١٩ تحقيق:أحمد محمد شاكر، ط، دار الكتب العلمية.

يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ"[محمد ٣٧، ٣٨]

٥- وقال سبحانه" وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى،فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى "[الليل:٨، ٩، ١٠]

مناسبة ذكر البخل للقرآن المدنى:

يلاحظ الباحث أن جميع المواقع التى ذكر فيها "البخل" وردت فى السور المدنية إلا موقع سورة الليل[٣].

ووقوع "البخل" فى السور المدنية جاء متناسباً مع كثرة المال الذى أنعم الله به على المسلمين بعد الهجرة فحذرهم سبحانه من أن يركنوا إلى الدنيا وينشغلوا بالمال وينسوا الآخرة. وحثهم على انفاق المال فى الجهاد فى سبيل الله، ولم يرد فى القرآن المكى، لأن المسلمين كانوا قليلى العدد ولم تكن هناك حاجة ملحة لإنفاق المال بقدر الحاجة الملحة لفهم العقيدة والدعوة إلى الإيمان.

أما موقع سورة"الليل" فيبدو من ظاهر أسباب النزول أنه ورد فى شخص معين قصده القرآن، وكان ثريا ومع ثرائه جمع كل الصفات السيئة التى جعلته أهلاً للعسرى، فأراد الله أن يجعله عبرة لأمثالة،

---

[٣]يرى جمهور المفسرين أن سورة الليل مكية وهناك من ذكر أنها مدنية وهناك من فصل فقال فيها مكى وفيها مدنى. يراجع تفسير ابن عطية جـ٥ ، ص٤٩٠، وتفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧٤١٩ والبحر المحيط جـ٨ صـ٤٧٧.

وليذكر المسلمين فى كل زمان ومكان بما كان عليه حال أعدائهم مع دعوة الإسلام فى أيامها الأولى[٤].

ثانياً: مواقع "الشح"

ورد "الشح" اسماً فى خمسة مواضع فى القرآن الكريم جاء مصدراً فى ثلاثة مواضع وجمعاً فى موضعين وبيانها كمايلى:

١ - قال تعالى "وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" [النساء:١٢٨]

٢ - وقال سبحانه "أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا" [الاحزاب:١٩]

---

[٤] قيل: الآيات نزلت فى أبى جهل وقيل: أمية بن خلف وعلى كل حال فهو رجل ثرى أظهر عداوته ونجله للإسلام والمسلمين. يراجع مفاتيح الغيب للفخر الرازى جـ١٦ صـ٤٤٨ وتفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧٤٢٢ والبحر المحيط جـ٨ صـ٤٧٧، ٤٧٩ وحاشية الشهاب، جـ٨ صـ٣٦٩

٣- وقال تعالى"وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "[الحشر:٩]

٤- وقال سبحانه"فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "[التغابن:١٦]

مناسبة اللفظ للقرآن المدنى:

وردت مواقع"الشح" فى السور المدنية أيضا، ومجيؤها فى القرآن المدنى كان مناسبا للكشف عن بعض أمراض القلوب التى فشت فى بعض أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب، ومن ذلك: النفاق الذى ورد ذكره كثيراً فى القرآن المدنى، والشح الذى يدعو صاحبه لمنع كل خير حتى يهلك نفسه ويهلك غيره، وقد جاء ذكر"الشح" فى سياق الحديث عن النفس مما يؤكد أنه طبع أصيل فيها.

إن ذكر"البخل" و"الشح" فى القرآن المدنى فيه تحذير من الركون إلى الدنيا، وفيه تنظيم للحياة الاجتماعية التى بدأ المسلمون يعيشونها فى المدينة المنورة، حيث أصبح لهم دولة ينظمها قانون الشريعة ويضبطها ميزان الشرع.

وضع القرآن أسس هذه الحياة التى تقوم على التكافل والتضامن والإيثار، ولم تكن هذه الدولة موجودة فى مكة على الوصف الذى ذكرناه، والحال الذى اعتبرناه كما أن ذكر "البخل" و"الشح" فى القرآن المدنى فيه تحذير آخر للمسلمين من أن يتشبهوا باليهود الذين جاوروهم فى المدينة، وكانوا حريصين غاية الحرص على الحياة الدنيا كأنهم مخلدون فيها!!

ثالثاً: معنى "البخل" و"الشح" عند أئمة اللغة والتفسير، والتفريق الدلالى بينهما :

من المعلوم أن الألفاظ أوعية المعانى، وأن لكل لفظ سمتا خاصاً به فى أداء المعنى. ولقد اهتم علماء اللغة بعلم الدلالة اهتماماً كبيراً ورأوا أنه من أجل علومها، وتحدثوا عن تطور الدلالة فهى تضيق وتتسع وتتغير وفق البيئة والزمن وعادات الناس فمفهوم الدلالة = أوالمعنى= خاضع للعرف والاستعمال. وللمجاز دور بارز فى تغيير الدلالة والكشف عن خفايا المعانى.

والدلالة- كما ذكر علماء الفقه- أنواع كثيرة منها: الدلالة الصوتية، والدلالة الصرفية، والدلالة النحوية، والدلالة المعجمية، والدلالة السياقية[٥]، وفهم هذه الأنواع مهم ولازم؟ لأنه يكشف عن مستويات المعنى ويدل على الفروق الدقيقة بين الألفاظ، ويهدى المتأمل إلى عظمة هذا القرآن العظيم للكشف عن بعض أسراره اللغوية والبيانية والأسلوبية، لأن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى استعمل هذه اللغة هذا الاستعمال المعجز، فوضع كل كلمة فى موضعها الخاص بها لتؤدى المعنى الذى أراده الله سبحانه، فلا يستطيع الخلق كلهم إنساً وجناً أن يقيموا لفظاً مكان ما استعملة القرآن حتى يؤدى المعنى الذى قصده

---

[٥] يراجع دلالة الألفاظ د/ إبراهيم أنيس ص٤٤ إلى ص٦١ ويراجع تطور الدلالة والحقيقة والمجاز وعوامل تطور الدلالة فى الكتاب المذكور من ص١٢٢ إلى ص١٦٧.

القرآن، ولا يستطيع الخلق كلهم أن يعبروا عما يريدون بتلك الدقة التى استعملها القرآن العظيم.

فالكلمة فى القرآن لها شخصية تعبيرية وخصوصية ربانية، ولا يليق بعظمة وروعة هذا القرآن أن تفسر كلمة بكلمة أخرى فيقال مثلا: "البخل" هو "الشح" أو يقال "الشح" هو "البخل" كما لا يصح أن يقال:"الخلف" هو "الوراء" و"الوراء" هو"الخلف" إلى غير ذلك مما وقع فى كتب اللغة والتفسير على جهة التسامح أو التساهل!! [٦].

ولأهمية التفريق الدلالى بين الألفاظ أذكر الأن. ما قاله أئمة اللغة والتفسير فى معنى كل من "البخل" و"الشح" والفروق الدلالية بينهما:

١- ذكر الخطاب ت ٣٨٨: أن أكثر الناس يظنون فى الألفاظ المتقاربة فى المعانى أنها متساوية فى الدلالة على المعنى، ثم بين أن الأمر على خلاف ذلك فقال: "ذلك أن فى الكلام ألفاظاً متقاربة فى المعانى يحسب أكثر الناس أنها متساوية فى إفادة مراد الخطاب كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح.....

والأمر فيها وفى ترتيبها عند علماء اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها فى بعض معانيها وإن كانا

---

[٦] يراجع"الفروق الدقيقة بين الخلف والوراء فى النظم القرآنى البديع" للباحث ففيه كثير من الفروق الدلالية بين لفظى:الخلف والوراء ويقاس عليهما باقى ألفاظ اللغة وهو بحث منشور فى العدد الثالث والعشرين من حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق ٢٠٠٣م.

يشتركان فى بعضها..... وأما "الشح" و"البخل" فقد زعم بعضهم أن البخل منع الحق وهو ظلم، والشح ما يجده الشحيح فى نفسه من الحزازة عند أداء الحق وإخراجه من يده.

قال: ولذلك قيل: الشحيح أعذر من الظالم.

قلت: وقد وجدت هذا المعنى على العكس مما روى عن ابن مسعود... عن أبى الشعثاء قال: قلت لعبدالله بن مسعود يا أبا عبدالرحمن، إنى أخاف أن أكون قد هلكت، قال: ولم ذاك؟ قلت: لأنى سمعت الله يقول: "وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[الحشر:٩]

وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدى شئ:قال: ليس ذاك الشح الذى ذكره الله فى القرآن، ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذاك البخل وبئس الشئ البخل"[٧].

٢- وقال أبو هلال العسكرى ت ٣٩٥: "الفرق بين الشح والبخل أن الشح الحرص على منع الخير، يقال رَجُل شحاح إذا لم يور ناراً وإن أشح عليه بالقدح كأنه حريص على منع ذلك والبخل: منع الحق، فلا يقال لمن يؤدى حقوق الله تعالى بخيل"[٨].

---

[٧]بيان أعجاز القرآن للخطابى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ط دار المعارف تحقيق/ محمد خلف الله ودكتور/ محمد زغلول سلام.

[٨]الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ص١٨٦، ط، المكتبة التوفيقة، تحقيق/ عماد زكى الباروى.

وما ذكره أبوهلال أقرب إلى الصواب مما ذكره الخطابى كما ترى، فأبوهلال ذكر أن الشح هو الحرص على منع الخير وأن البخل هو المنع ذاته وهذا كلام مقبول عند ا لعلماء بل كادوا يجمعون عليه، أما الخطابى فقد ذهب بعيداً حيث أطلق الشح على الاعتداء وأكل مال الغير وهذا ما لم يقل به أحد، لأن الشح صفة نفس وليس صفة جوارح.

٣-وكان الراغب الأصفهاني ت٥٠٢ قريبا من أبى هلال فى ذكر الفرق بينهما فهو يقول"البخل إمساك المقتنيات عما لا يحق حبسها عنه ويقابله الجود، يقال: بخل فهو باخل، وأمَّا البخيل فالذى يكثر منه البخل كالرحيم من الراحم. والبخل ضربان: بخل بِقَنِيَّات نفسه وبخل بقنيات غيره وهو أكثرهما ذماً دليلنا على ذلك قوله تعالى:" الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ "[النساء:٣٧] [٩]

وقال عن الشح:" الشح بخل مع حرص وذلك فيما كان عادة قال:" وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ" وقال "ومن يوق شح نفسه" [الحشر:٩] يقال: رجل شحيح وقوم أشحة قال:" أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ، أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ "[الاحزاب:١٩] وخطيب شحشح ماضٍ فى خطبته من قولهم: "شحشح البعير فى هديره"[١٠].

والراغب- كما ترى- يستدل على فهم الدلالة بآيات من القرآن الكريم وهذا ما جعله دقيقا فى تحديد المفهوم.

---

[٩]المفردات مادة: "بخل"

[١٠]المفردات: مادة:"شح"

٤- وابن منظور ت ٧١١ ذكر إضافات طيبة تحسب له وأورد مشتقات المادة وعَرَّف الكلمة بذكر ضدها فبين أن البَخْل والبُخول ضد الكرم، واسم الفاعل: باخل وقد يوصف بالمصدر فيقال: رَجُلٌ بَخَل. واسم المرة: بَخْلة وبَخَّال صيغة مبالغة تدل على شدة البخل والمبخلة: الشئ الذى يحملك على البخل[١١].

وقال فى الشح:" الشُّحُّ والشَّحُّ: البُخْلُ والضم أعلى، وقيل: هو البخل مع حرص، وفى الحديث: أياكم والشح.

الشح: أشد البخل وهو أبلغ فى المنع من البخل، وقيل: البخل فى أفراد الأمور وآحادها والشح عام. وقيل: البخل بالمال والشح بالمال والمعروف.... وتشاحَّوا فى الأمر وعليه شح به بعضهم على بعض وتبادروا إليه حَذَرَ فَوْته.

ويقال: هما يتشاحان على أمر إذا تنازعاه، لا يريد كل واحد منهما أن يفوته.. وزَنْد شحاح: لا يُورى كأنه يشح بالنار... وأرض شحاح تسيل من أدنى مطرة كأن تشح على الماء بنفسها... والشح: حرص النفس على ما ملكت وبخلها به، وما جاء فى التنزيل من الشح فهذا معناه كقوله تعالى:" ومن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "..... وفى الحديث: أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخشى الفقر، وفى

---

[١١] تراجع مادة: بخل فى اللسان.

حديث ابن عمر: أن رجلاً قال له: إنى شحيح فقال: وإن كان شحك لا يحملك على أن تأخذ ما ليس لك فليس بشحك بأس"[١٢].

وابن منظور- كما يلاحظ الباحث- جمع فى دلالة الشح كل ما قيل حتى زمانه، ولولا أنه ذكر فى كلامه أن الشح هو البخل لقلنا إنه خير من تناول دلالة الكلمة على الإطلاق.

٥- والزركشى ت ٧٩٤ لاحظ الفرق بين البخل والشح عند حديثه عن :ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه فقال:" فلا يقوم مرادف فيما استعمل فيه مقام الآخر، فعلى المفسر مراعاة الاستعمال والقطع بعدم الترادف ما أمكن، فإن للتركيب معنى غير معنى الإفراد، ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر فى التركيب، وإن اتفقوا على جوازه فى الإفراد... ومن ذلك: الشح والبخل، والشح هو البخل الشديد"[١٣].

٦- والفيروز أبادى ت ٨١٧ ذكر الفرق بين البخل والشح والعلاقة بينهما فقال:"والبخل:إمساك المقتنيات عما لا يحق حبسها عنه ويقابله الجود، والبخل ثمرة الشح. والشح يأمر بالبخل كما قال: (صلى الله عليه وسلم):" إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا

---

[١٢]اللسان مادة: شح.

[١٣]البرهان للزركشى جـ٤ صـ٧٨ وصـ٧٩ تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ط ، دار التراث.

وأمرهم بالقطيعة فقطعوا" فالبخيل من أجاب داعى الشح والمؤثر من أجاب داعى الجود والسخاء والإحسان"[١٤].

ثم قال عن الشح:" شح به: بخل مع حرص، قال تعالى:" وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "[الحشر:٩] والشح ضد الإيثار، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح حريص على ماليس بيده، فإذا حصل بيده شح وبخل بإخراجه، فالبخل ثمرة الشح والشح يأمر بالبخل كما قال(صلى الله عليه وسلم):" إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا" فالبخيل من أجاب داعى الشح والمؤثر من أجاب داعى الجود والسخاء والإحسان"[١٥].

ويلاحظ أن الفيرزوأبادى كرر ما قاله عن البخل عند حديثه عن الشح لكن يحمد له أنه ذكر ما يقابل اللفظين فذكر أن البخل يقابله الجود والسخاء، والشح يقابله الإيثار كما يحمد له- رحمه الله- أنه ذكر العلاقة بين اللفظين فبين أن البخل ثمرة من ثمرات الشح فالشح يدعو للبخل والبخيل من أجاب داعى الشح، فالعلاقة بينهما: علاقة السَبَبَ والمسبب. وأكتفى بما ذكرته من أقوال أئمة اللغة فى التفريق الدلالى بين لفظى: البخل والشح، ففيه كفاية- فيما أرى- حيث ظهر الفرق بين اللفظين، وتبين ما يقابل كل واحدٍ منهما وظهرت العلاقة بينهما وأن

---

[١٤]بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيزوز آبادى جـ٢ ص٢٢٧ تحقيق: محمد على النجار ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

[١٥]السابق جـ٣ ص٣٠٠.

البخل ثمرة من ثمار الشح ومسبب عنه، وليست الثمرة التى قصدها العلماء من النوع الذى يلذ طعمه ويحسن هضمه ولكنها ثمرة ضارة خرجت من شجرة خبيثة فأفسدت من أكلها وقضت عليه.

وننتقل الآن إلى ما ذكره أئمة التفسير فى التفريق الدلالى بين "البخل" و"الشح".

الفروق الدلالية بين البخل والشح عند أئمة التفسير:

إذا انتقلنا إلى علماء التفسير نجد عندهم إضافات دلالية حصلوها من تأمل النظم القرآنى الشريف.

١- فالزمخشرى ت ٥٣٨- رحمه الله-يقول عند تفسيره لقوله تعالى:" وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ "[النساء:١٢٨]:" ومعنى إحضار الأنفس الشح أن الشح جعل حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً ولا تنفك عنه يعنى أنها مطبوعة عليه"[١٦].

وقال عند آيه سورة الحشر:" الشُّح بالضم والكسر وقد قرئ بهما اللؤم وأن تكون نفس الرجل كزَّه حريصة على المنع... وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها وأما البخل فهو المنع نفسه[١٧].

وكلام الزمخشرى موجز ودقيق فقد بين أن الشح الحرص على المنع وأن النفس مطبوعة على ذلك، أما البخل فهو المنع نفسه وهذا

---

[١٦]الكشاف جـ١ ص ٣٠٢ ط دار المعرفة بيروت.
[١٧]المرجع السابق جـ٤ ص٨٢.

أدق ما قيل فى الفرق بين اللفظين وقد اعتمد عليه عامة المفسرين مع ذكر إضافات طيبة تحسب لأصحابها.

٢- وابن عطية ت ٥٤٦- رحمه الله- يقول:" ويدلك على أن الشح فى كل أحد قوله تعالى:" وأحضرت الأنفس الشح" وقوله" شح نفسه" فقد أثبت أن لكل نفس شحاً وقول النبى(صلى الله عليه وسلم):" وأن تصدق وأنت صحيح شحيح" وهذا لم يُرد به واحداً بعينه وليس يجمل أن يقال هنا: أن تصدق وأنت صحيح بخيل"[١٨].

ثم ذكر أن عبدالرحمن بن عوف (رضى الله عنه) كان يطوف بالبيت العتيق ويقول:" اللهم قنى شح نفسى لا يزيد على ذلك، فقيل له فى ذلك. فقال: إذا وقيته لم أفعل سوءاً...شح النفس فقر لا يذهبه غنى المال بل يزيده وينصب به"[١٩].

فابن عطية يرى أن الشح فى كل أحد وأنه الفقر الحقيقى الذى لا يذهبه غنى المال بل يزيده.

٣- وفخر الدين الرازى ت ٦٠٦- رحمه الله- يقول:" واعلم أن الفرق بين الشح والبخل هو أن البخل نفس المنع، والشح هو الحالة

---

[١٨] المحرر الوجيز لابن عطية ج٢ ص١٢٠ تحقيق: عبدالسلام عبدالشافى ط دار الكتب العلمية.

[١٩] السابق جـ٥ ص٢٨٨.

النفسانية التى تقتضى ذلك المنع فلما كان من صفات النفس لا جرم قال تعالى:" وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[٢٠].

وقال فى موضع أخر:" الشح هو البخل وأنه يعم المال وغيره يقال: فلان شحيح بالمال وشحيح بالجاه وشحيح بالمعروف وقيل: يوق ظلم نفسه فالشح هو الظلم"[٢١].

الرازى يرى أن الشح أعم من البخل لأنه يدخل المال وغيره، وأن البخل نفس المنع أما الشح فهو طبع من طباع النفس يقتضى هذا المنع وما ذكره لا يخرج عما قرره الزمخشرى.

٤- والقرطبى ت ٦٧١- رحمه الله- لم يخرج عما ذكره الزمخشرى بل أكد كلامه، فذكر أن البخل هو ن يمنع الإنسان إخراج ما حصل عنده من الحق الواجب عليه، وأن الشح هو الحرص على البخل والمنع وذكر من الأحاديث النبوية ما يؤيد هذا المعنى[٢٢].

٥- وبمثل ذلك قال البقاعى ت ٨٨٥- رحمه الله- فذكر أن الشح خلق باطن يقود إلى البخل، وأن البخل فعل ظاهر مسبب عن الشح[٢٣].

٦- ولم يخرج أبوالسعود ت ٩٨٢- رحمه الله- عن هذا المعنى حيث ذكر أن الشح غريزة من غرائز النفس تدفع صاحبها إلى البخل[٢٤].

---

[٢٠]مفاتيح الغيب ج١٥ ص٤٧٩ ط دار الغد العربى.
[٢١]السابق ج١٥ ص٥٦٤.
[٢٢]يراجع تفسير القرطبى ج٢ ص١٦٣٣، ١٦٣٤ ط دار الغد العربى.
[٢٣]يراجع نظم الدرر ج ٨ ص٢١ ط دار الكتاب الإسلامى.

والقصر فى الآيه على جهة المبالغة وكأنه لا ينظر إلى غير ذلك من أوصاف الحياة الدنيا، لقلتها وعدم تعلق قلوب الناس بهـا. ويـرى الطاهر بن عاشور- رحمه الله- أن "الإخبار عن الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو على معنى التشبيه البليغ، شبهت أحوال الحيـاة الـدنيا باللعـب واللهو فى عدم ترتب الفائدة عليها، لأنها فانية منقضية والآخرة هى دار القرار"[٥٠].

ولايظهر- لى- التشبيه الـذى رآه، لأن المعنـى- والله أعلـم بمراده- هو بيان غالب أحوال الدنيا، وهو قريب من قولنا: الحياة الدنيا فناء أو خراب ومثله قولنا: فلان شجاع أو فـلان كسـول، فالتشـبيه لا يكون مراداً فى مثل هذا، لأننا نذكر صفة الشئ. وصفة الشئ لا تكـون تشبيها، لأنها ليست أمراً مغايراً للذات يراد إلحاق الشئ به، تأمـل فـى قوله الناس: الدنيا فانية وقولهم: الدنيا كأمراة لعوب، ففناء الدنيا صـفة حقيقية لها، والمرأة اللعوب شئ آخر يراد تشبيه الدنيا به.

إن الآيه المباركة تقرر حقيقة الدنيا وقلة قيمتها، ويؤكـد ذلـك الإخبار عنها بالمصدر" لعب ولهو" فهى عين اللعب واللهو وفـى هـذا التعبير مافيه من المبالغة فى وصف حقارتها على ما هـو معلـوم فـى بلاغة الإخبار بالمصدر.

والتعبير بالشرط واختيار"إن" دون غيرها من أدوات الشرط فـى قوله تعالى:"وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم" وقع مناسباً لذكر اللعـب واللهو وكأن الإيمان والتقوى أمر قليل ونادر إذا قيس بكثرة غفلة الناس

---

[٤٩] يراجع مفاتيح الغيب ج١٤ ص٢٩٨ والفروق اللغوية ص٢٦٨ وتراجع المادتان فى لسان العرب.

[٥٠] التحرير والتنوير ج١٢ ص١٣٣.

فى هـذه الـدنيا. قـال تعـالى:" وَمَـا أَكْثَـرُ النَّـاسِ وَلَـوْ حَرَصْـتَ بِمُؤْمِنِينَ"[يوسف:١٠٣]

والخطاب لكل من يتأتى خطابه من الخلق إنساً وجنـاً. وقولـه تعالى"ولايسألكم أموالكم" معطوف على جواب الشـرط والإضـافة فـى "أموالكم" للاستغراق، فالله سبحانه نفـى ذلـك، أى: لا يسـألكم جميـع أموالكم وإنما يسألكم شيئاً يسيراً منها وهو الزكاة المفروضة وهى شـئ يسير إذا قيس بالمال كله، وفى الآيه مقابلة حسنة لأن المعنى يعطكم كل أجوركم ويسألكم بعض أموالكم[٥١].

وجملة:"إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا" تعليل لنفى سؤاله تعـالى كل أموالهم، لأنه إن حدث ذلك فلن يخرجوها بسبب بخلهم الشديد.

يقول الفخر الرازى- رحمه الله- عن سـر اختيـار الفـاء دون الواو فى قوله تعالى:"فيحفكم" الفاء فى قوله تعالى:"فيحفكم" للإشارة إلى أن الإحفاء يتبع السؤال بيانا لشح النفس، وذلك لأن العطف بـالواو قـد يكون للمثلين وبالفـاء لا يكـون إلا للمتعـاقبين أو متعلقـين أحـدهما بالآخر"[٥٢].

ووقوع الإحفاء عقب السؤال معناه أن يكثر الطلب ويمتد زمنـه عند السؤال أو يتكرر الطلب فى كل الأوقات، والإحفـاء: الإلحـاح فـى المسألة والإكثار فى الطلب وهو مثل الالحاف[٥٣].

وهذا كلام صادر عن عزة الربوبية، لأن فيه إحاطة بأسرار هـذه النفس البشرية وكشف عن حقيقتها الخفية. "وهذا النص يوحى بحكمـة

---

[٥١]يراجع روح المعانى ج١٣ ص٢٣٥.
[٥٢]مفاتيح الغيب ج١٤ ص٢٩٩.
[٥٣]تراجع المادة فى المفردات واللسان.

اللطيف الخبير كما يوحى برحمته ولطفه بالنفوس، ويكشف عن التقدير الدقيق فى تكاليف هذا الدين ومراعاته للفطرة، وتناسقه مع بشرية النفس بكل استعدادتها وطاقاتها وأحوالها"[٥٤].

والبخل صفة سيئة تجلب العداوات وتوقظ الضغائن ولهذا حسن عطف قوله:" ويخرج اضغانكم" على جملة الجواب، فالأحقاد والعداوات تظهر دائما حين يزيد حب الناس للمال وبخلهم به.

وفاعل" يخرج" ضمير عائد على اسم الجلالة، ويجوز أن يعود على البخل على الإسناد المجازى بعلاقة السببية، لأنه سبب فى إخراج الضغائن، وهذا الإسناد يظهر قوة السبب وشدة تأثيره[٥٥].

ثم ذكر الله تعالى دليلاً على أنه لو أحفاهم لبخلوا وكرهوا العطاء فقال:" هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل" وجاءت"ها" فى أول الجملة حيث دخلت على ضمير الرفع المنفصل المخبر عنه باسم الإشارة للتنبيه ولإفادة التوكيد[٥٦].

وقوله تعالى:" ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه" فيه قصر صفة البخل على نفس صاحبها بمعنى أن ضرر ذلك البخل عائد عليه وحده، وهذا قصر قلب، فيه قلب لاعتقاد صاحبه حيث كان يحسب أن إمساك المال سيفيده فإذا به يعود عليه بالخسارة لأنه حرم نفسه غاية الخير وهو رضوان الله عليه[٥٧].

---

[٥٤]فى ظلال القرآن ج٦ ص٣٣٠٢.

[٥٥]يراجع الكشاف ج٣ ص٤٦٠ وإرشاد العقل السليم ج٨ص١٠٢ وحاشية الشهاب ج٨ ص٥٢ وروح المعانى ج١٣ ص٢٣٦.

[٥٦]يراجع الكشاف ج٣ ص٤٦٠ والبحر المحيط ج٨ ص٨٤ وروح المعانى ج١٣ ص٢٣٦ ومغنى اللبيب ج٢ ص٣٤٩.

[٥٧]يراجع التحرير والتنوير مجلد ١٢ ص١٣٧.

وتعريف الطرفين فى قوله تعالى:" والله الغنى وأنتم الفقراء" أفاد القصر حيث قصرت صفة الغنى الكامل على لفظ الجلالة ونفيت عمن سواه من خلقه، وهو قصر حقيقى تحقيقى، وقصرت صفة الفقر على الضمير"أنتم" الراجع للبشر، ونفيت عن موصوف معين وهو لفظ الجلالة وهو قصر إفراد، وقد أفادت الجملة الثانية التوكيد لمعنى الجملة الأولى.

وختمت الآيه المباركة بقولة تعالى:" وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم" على طريقة الشرط والجزاء ويلاحظ أن أسلوب الشرط تكرر أربع مرات فى هذه الآيه، كما يلاحظ كثرته فى النظم القرآنى عموماً.

وهذه طريقة أسلوبية تحتاج إلى كثير من الدراسات البلاغية المتأنية التى تكشف كثيراً من أسرار هذا التعبير، وتبين سر بناء المعانى وارتباطها وتسلسلها، وتظهر ما يفيده أسلوب الشرط من التشويق إلى الجواب والاهتمام به، وتكشف سر تنوع جواب الشرط بين الجمل الفعلية والجمل الإسمية ومدى ارتباط هذا التنوع بالسياق والمقام، وتكشف أيضا عن سبب اختيار أداة عطف دون أخرى، فى الجمل التى تعطف على جمل الجواب وسر تنوع إعراب الجمل المعطوفة على الجواب.

قلت: إن هذه الطريقة الأسلوبية تحتاج إلى كثير من الدراسات الجادة، لأنها ظاهرة قرآنية تتجلى فيها عظمة وروعة هذا القرآن، مثل غيرها من الطرائق الأسلوبية الأخرى.

وفى تراث سلفنا الصالح من أئمة التفسير والبلاغة أسس ثابتة يعتمد عليها فى هذا الباب، ويمكن أن نضيف إليها ما يحقق النفع الكثير والخير العميم فى إدراك لطائف هذه اللغة الشريفة، قلت إن فى تراث

سلفنا أسس ثابتة وجهود صادقة لأنهم لم يهملوا الحديث عن هذا الأسلوب.

- فقد ذكر سعد الدين التفتازانى فى مطوله أن تحقيق الكلام عن أسلوب الشرط والجزاء من نفائس المباحث وذكراعتبار المنطقيين واعتبار أهل اللغة وقرَّر أن بناء الكلام فى الشرط والجزاء بناء للمسبب عن سببه وذكر الفروق بين أدوات الشرط، ولكنه- رحمه الله- ناقش القضية مناقشة فلسفية خرجت فى كثير من الأحيان عن ذوق البلاغة وروح العربية إلى المسائل المنطقية والطرق البرهانية على حد تعبير السيد الشريف رحمه الله[٥٨].

وذكر العصام فى الأطول أن الحديث عن الشرط والجزاء من المباحث النفيسة وأن فى كلام النحويين والميزانيين يعنى المنطقيين اعتبارات لطيفة[٥٩].

وكان الإمام عبدالقاهر- رحمه الله- أنفذ حساً وأبعد نظراً وأرقى ذوقاً وأعمق فكراً فى فهم ارتباط الجزاء بالشرط وأن الكلام لا يعد تاماً إلا بمجموعهما، لأن الجمل تتوقف على بعضها ولا تستقل بنفسها. قال- رحمه الله -:" الشرط والجزاء جملتان، ولكنا نقول: إن حكمهما حكم جملة واحدة من حيث دخل فى الكلام معنى يربط إحداهما بالأخرى حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفرد فى امتناع أن تحصل به الفائدة فلو قلت:" إن تأتنى" وسكت لم تفد، كما لا يفيد إذا

---

[٥٨] يراجع المطول لسعد الدين وحاشية السيد الشريف عليه من ص١٥٢ إلى ص١٧٣.

[٥٩] يراجع الأطول للعصام ص١٧٤ إلى ص١٩٠.

قلت:"زيد" وسكت فلم تذكر اسماً آخر ولا فعلاً، ولا كان منوياً فى النفس معلوماً من دليل الحال"[٦٠].

وقد فصل الكلام فى هذا الأمر وزاده بيانا فى "دلائل الإعجاز" حيث تحدث عن عطف جملة على أخرى ثم عطف مجموع جمل على مجموع جمل أخرى سواء أكان هذا فى جمل الشرط أم كان فى غيرها، وبين أن هذا فن من القول خاص ودقيق ثم قال:" وإذ قد عرفت هذا النمط من الكلام وهو ما تتحد اجزاؤه حتى يوضع وضعاً واحداً، فاعلم أنه النمط العالى والباب الأعظم والذى لا ترى سلطان المزيه يعظم فى شئ كعظمه فيه"[٦١].

وقد نبه الفخر الرازى- رحمه الله- إلى أمر دقيق يتعلق بالمعطوف على جواب الشرط وأحواله الإعرابية وأسراره البلاغية وذلك فى قوله:" وقوله تعالى "ثم لايكونوا أمثالكم" فيه مسألة نحوية يتبين منها فوائد عزيزة وهى أن النحاة قالوا: يجوز فى المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم الجزم والرفع جميعا قال الله تعالى ها هنا:" وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم" بالجزم. وقال فى موضع آخر:" وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ" آل عمران/١١١ بالرفع بإثبات النون. وهو مع الجواز ففيه تدقيق وهو أن ههنا لا يكون متعلقا بالتولى، لأنهم إن لم يتولوا يكونون ممن يأتى بهم الله على الطاعة وإن تولوا لا يكونون مثلهم لكونهم عا صين وكون من

---

[٦٠] أسرار البلاغة ج١ ص٢٢٠ تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجى ط مكتبة القاهرة.
[٦١] دلائل الاعجاز ص٩٥ ويراجع ص٩٥، ص٢٤٤ إلى ص٢٤٨.

يأتى بهم مطيعين. وأما هناك سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون فلم يكن للتعليق هناك وجه فرفع بالابتداء وهاهنا جزم للتعليق"[٦٢].

وخلاصة ما قصده الرازى- فى فهمى- أن آية سورة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) فيها تعليق أى: ارتباط بين المعانى، وترتب على ذلك الجزم الذى يدل على هذا التعليق، لأن المعنى- والله أعلم بمراده- أن المجئ بأولئك القوم الذى يستبدلون ويكونون غيرهم مشروط بتولى هؤلاء وإعراضهم فإن لم يوجد تولى لا يوجد استبدال. أما آية سورة "آل عمران" السابقة فتبين أن كونهم لا ينصرون لا تعليق فيه فلا يوجد اشتراط يترتب عليه أن يتحد الإعراب.

ويوجد الجزم فى المعطوف على جواب الشرط، لأن كونهم لا ينصرون أمر ثابت وحق واقع سواء قاتلوا المؤمنين أم لم يقاتلوهم لأنهم كفروا بالله فاستحال نصرهم.

فمعنى كلام الفخر الرازى- رحمه الله- إنه إذا كان هناك تعلق وجب الجزم واتحد الإعراب ليكون ذلك دليلاً على التعلق، وإن لم يكن تعلق وارتباط واستقلت معانى الجمل جاء الرفع دليلاً على ذلك الاستقلال و"ثم" فى قوله تعالى" ثم لايكونوا أمثالكم" لبعد الرتبة، لأن رتبتهم ستكون أعلى وأرفع من رتبتكم[٦٣].

٥- وقوله تعالى:" الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ"[الحديد: ٢٤] ورد فى بيان صفات المنافقين وهذه

---

[٦٢] مفاتيح الغيب ج١٤ ص٣٠١، ٣٠٢.

[٦٣] يراجع حاشية الشهاب ج٨ ص٥٢ وروح المعانى ج١٣ ص٢٣٦ والتحرير والتنوير ج١٢ ص١٣٩.

الآية متشابهة مع آية سورة النساء التى تناولناها من قبل والتى دارت حول صفات اليهود.

وجاء التشابه بينهما من حيث بيان حال كلا الفريقين فكل فريق يبخل بما عنده وفى نفس الوقت يأمر غيره بالبخل، والتعبير بالموصول فى الآيتين يدل على شهرتهم بذلك.

وهناك فروق دلالية بين الآيتين تجعل لكل آيه خصوصيتها التعبيرية، ومن هذه الفروق: أن آية سورة النساء ذكرت وصفا آخر لليهود وهو قوله تعالى:"ويكتمون ما آتاهم الله من فضله" وهذا الكتمان خاص بما أخفوه من دلائل نبوة النبى محمد(صلى الله عليه وسلم) وهذا الكتمان كفر ولذلك ختمت الآيه بالتهديد والوعيد فى قوله تعلى:" وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا"، وهذا يختلف عن قوله تعالى فى آخر آية سورة الحديد:" ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد" وفاصلة آية سورة الحديد تؤكد أن البخل وارد على حقيقته من منع إنفاق المال الواجب، لأن صفة الغنى وردت مقابلة لصفة البخل، ولو كان البخل فى الآيه مستعملاً فى شئ غير منع المال ككتمان العلم مثلا لكان المقابل لذلك عليم خبير وليس"غنى حميد".

وقوله تعالى:" الذين يبخلون" "بدل من كل مختال" فإن المختال بالمال يضن به غالبا ويأمر غيره به، أو مبتدأ خبره محذوف يدل عليه قوله:" ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد"وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق"[٦٤].

---

[٦٤]إرشاد العقل السليم ج٨ ص٢١٢.

وهذه الآيه المباركة تفضح المنافقين الذين عظمت الدنيا فى أعينهم فبخلوا بأداء حقوق نعم الله عليهم ولم يكتفوا بذلك البخل بل أمروا غيرهم به ورغبوهم فيه. ويبدو أنهم أمروا بالبخل على الحقيقة، وقيل: كانوا قدوة فى البخل فكأنهم أمروا به[٦٥].

وحمل الكلام على الحقيقة هو الظاهر- والله أعلم بمراده- لما هو معلوم من أحوال المنافقين فى كل زمان ومكان فهم يثبطون همم الناس عن الكرم والجود، ويدعون أنهم ناصحون مخلصون والتعبير بالمضارع "يبخلون" و"يأمرون" يدل على تجدد وحدوث هذه الصفات فيهم، فهى متكرره ومتجدده

وقوله تعالى: " ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد" جملة شرطية محذوفة الجواب لوجود ما يدل عليه وتقدير الجواب- والله أعلم بمراده- ومن يتول فلا يضر الله شيئا وفى الآيه قصر بتعريف الطرفين، حيث قصرت صفتا الغنى والحمد على اسم الجلالة قصراً حقيقاً تحقيقا فلاغنى فى الحقيقة إلا الله وحده هو سبحانه وحده لا يحتاج إلى أحد، ولا محمود بكل صفات المحامد إلا الله وحده، لأن له صفات الكمال وهو الذى يعطى من غير حساب وضمير الفصل يؤكد هذا القصر[٦٦].

٦- وقوله تعالى:" فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى،فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى،وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى"[الليل٥: ١٠]

---

[٦٥]يراجع البحر المحيط ج٨ ص٢٢٤.

[٦٦]يراجع التحرير والتنوير ج١٣ ص٤١٤ و٤١٥.

جاء بيانا وتفصيلاً للإجمال السابق فى قوله تعالى:" إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى"[الليل: ٤] وقد انحصر التفصيل فى فريقين: فريق ميسر لليسرى وفريق آخر ميسر للعسرى[٦٧].

و"أما" حرف شرط وتفصيل وتوكيد، وهى بمعنى: مهما يكن من شئ، والتفصيل غالب أحوالها والمقصود بإفادتها التوكيد أى: توكيد وقوع جواب الشرط، وقد صرح بذلك الزمخشرى فذكر أن فائدة "أما" فى الكلام أنها تعطيه فضل توكيد وقد استدل على ما ذكره بقول سيبويه"مهما يكن من شئ فزيد ذاهب" فقد علق ذهابه على وجود شئ ما، وهو محقق والمعلق على المحقق محقق[٦٨].

والمراد بالإعطاء فى الآية بذل المال، وحذف المفعول- هنا- لأن المقصود الثناء على المعطى دون التعرض للعطية أو المعطى، وهذا مما ينزل فيه المتعدى منزلة اللازم ويجوز أن يكون سبب الحذف العلم بالمفعول، لإشتهار استعماله فى إعطاء المال، وكذلك حذف مفعول "اتقى" لأن المقصود ثبوت التقوى أو حذف للعلم بالمفعول[٦٩].

---

[٦٧]المرجع السابق ج١٥ ص٣٨١.

[٦٨]يراجع مغنى اللبيب ج١ ص٥٦، ٥٧ وحاشية الصبان على شرح الأشمونى ج٤ ص٤٤ إلى ص٤٧ ط الحلبى. وقد أشار ا لمبرد إلى أن "أما" فيها معنى الجزاء وفيها التوكيد فقال:" لأن أما فيها معنى الجزاء واقع... ألا ترى أنك تقول: أمازيد فمنطلق"فأما اليتيم فلا تقهر" فالمعنى: مهما يكن من شئ فلا تقهر اليتيم" المقتضب ج٢ ص٦٨، ٦٩ تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

[٦٩]يراجع البحر المحيط ج٨ ص٤٧٨ وروح المعانى ج١٥ ص٣٦٦ وص٣٦٧ ويراجع الفتوحات الإلهية ج٨ ص٥٦٩ والتحرير والتنوير ج١٥ ص٣٨٢.

وقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة فى المراد"بالحسنى" وكلها متقاربة، وأشهر ما قيل فيها: أنها الجنة فقد ذكر الإمام ابن كثير- رحمه الله- فى تفسيره أن أحد الصحابة رضوان الله عليهم- سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الحسنى فقال(صلى الله عليه وسلم) "الحسنى الجنة"[٧٠].

وقوله تعالى:"فسنيسره لليسرى" جاء جزاء لكل ما تقدم من أعمال البر المذكورة فى السورة من الإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى. قال الزمخشرى- رحمه الله:" فسنهيؤه لها من يسر الفرس للركوب إذا أسرجها وألجمها ومنه قوله عليه السلام: كل ميسر لما خلق له والمعنى: فسنلطف به ونوفقه حتى تكون الطاعة أيسر الأمور عليه[٧١].

و"اليسرى" هى الجنة- عند جمهور المفسرين- والتعبير عنها باليسرى وارد على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الحالية حيث أطلق الحال وأريد المحل وبلاغة هذا التعبير أنه يبين صفة الجنة فهى لا شقاء فيها ولاتعب، وإنما هى راحة فوق راحة يتقلب أهلها فى نعيم لا يزول[٧٢].

---

[٧٠]يراجع تفسير ابن كثير ج٤ص١٥٨.
[٧١]الكشاف ج٤ ص٢١٧.
[٧٢]يراجع حاشية الشهاب ج٨ ص٣٦٨ وروح المعانى ج١٥ ص٣٦٧.

ثم جاءت المقابلة بعد ذلك بأربع صفات أخرى مضادة للصفات السابقة قال تعالى:" وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى،وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى،فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى"[الآيات ٨، ٩، ١٠]

وقبل دراسة المقابلة أتوقف أمام هذا الترتيب البليغ أعنى: ترتيب الصفات السابقة ثم ترتيب الصفات المضادة لها، لأن فى هذا الترتيب إعجازا يسترعى الانتباه والتأمل.

فقد قدم فى الآيات الإعطاء- وهو بذل المال- على التقوى وقدمت التقوى على التصديق بالحسنى وفى المقابلة روعى ذلك فقدم البخل وهو منع إنفاق المال على الاستغناء- ومعناه الكفر وعدم التقوى- وقدم الاستغناء على التكذيب بالحسنى.

وقد قرأت للإمام الألوسى عند تفسيره لهذه الآيات كلاماً طيباً يدل على أنه وقف يتأمل هذا الترتيب وحاول أن يتعرف على أسراره، وخلاصة ما ذكره- رحمه الله- أن فى ترتيب هذه الصفات عطف للخاص على العام، ثم نقل كلاماً لأبى السعود- رحمه الله- مفاده أن فى الآيات ترقى من الأدنى للأعلى، للإيذان بأن كل وصف أصيل فيما ذكر بعده[٧٣].

ويمكن أن يضاف إلى ما ذكره هذان العالمان الجليلان- رحمهما الله- أن فى الآيات تقديم المسبب على السبب، فالإعطاء مسبب عن

---

[٧٣]يراجع روح المعانى ج١٥ ص٣٦٧ ثم إرشاد العقل السليم ج٩ ص١٦٦ وص١٦٧.

التقوى، والتقوى مسببة عن الإيمان الراسخ بلقاء الله تعالى ورجاء ما عنده، وهذا مراعى فى المقابلة أيضا فالبخل مسبب عن الاستغناء بشهوة المال عما عند الله من نعيم الآخرة وهذا الاستغناء مسبب عن عدم الإيمان باليوم الآخر.

والذى يرشد إلى القول بتقديم المسبب على سببه مراعاة سبب نزول هذه الآيات ومراعاة السياق الذى يوضح ويفصل قول الله تعالى:" إن سعيكم لشتى"[٧٤].

فالآيات راعت الصفات الدالة على الإيمان والصفات الدالة على الكفر لما يترتب على ذلك من أمور عظيمة فى مستقبل الدعوة.

وتقديم الإعطاء فى هذا المقام له أهمية خاصة لأنه أوضح دليل على التقوى وأظهر علامة على قوة الإيمان. كما أنه أمارة من أمارات التكافل الاجتماعى الذى يدل على التراحم والإيثار فى هذا الدين الجديد.

---

[٧٤] هذه الآيات كما ذكر المفسرون نزلت فى أبى بكر الصديق" رضى الله عنه" وأمية بن خلف وذكر الزمخشرى بدل أمية أبا سفيان بن حرب وهو مردود لأن أبا سفيان أمن وحسن إسلامه. وإذا كانت العبرة- كما قيل بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فهذا لا يمنع من تأمل سبب النزول الذى يبين حال الناس أو بمعنى أدق حال أشهر من وقفوا مع الدعوة الإسلامية أو من وقفوا ضدها فى أيامها الأولى. يراجع الكشاف ج٤ ص٢١٧ ومفاتيح الغيب ج١٦ ص٤٥٠ وتفسير القرطبى ج١٠ ص٧٤٢١ وص٧٤٢٢ والبحر المحيط ج٨ص٤٧٨ وتفسير ابن كثير ج٤ ص٥٢٠، ٥٢١ وأسباب النزول للسيوطى ص٢١٥ وروح المعانى ج١٥ ص٣٦٨.

وإعطاء المال هو أول مواجهة حقيقية بين الإيمان والكفر، لأن الجهاد بالمال سوف يبنى دولة جديدة تتصدى لدولة الكفر تصدياً شديداً يمنع زعماءها من الهيمنة والسيطرة التى فرضوها على فقراء المسلمين وضعفائهم فيصبح فقراء المسلمين وضعفاؤهم أشداء على الكفار كل الشدة ومستغنين عنهم كل الاستغناء.

والمقابلة فى هذه الآيات جاءت بين معانى كثيرة فاليخل مقابل للإعطاء، والاستغناء مقابل للتقوى والتكذيب بالحسنى مقابل للتصديق بها،والعسرى مقابلة لليسرى. والمقابلة بين كل هذه الصفات واضحة إلا بين" اتقى"و"استغنى" ففيها شئ من الخفاء.

وقد حاول المفسرون بيان المراد بهذين الوصفين فذكروا أن المراد بـ"استغنى" زهد فيما عند الله فكأنه استغنى عنه فلم يتق، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنه فانغمس فى الضلال ولم يتق فالاستغناء لازم لعدم التقوى أو مسبب عنه، ومنهم من فسر الاستغناء بالكفر أو الانشغال بالشهوات المحرمة فكأنه مضاد للتقوى بظاهر اللفظ[٧٥].

والمقابلة بين هذه المعانى تظهر الفرق الواضح بين هذين الحالين المختلفين لمن آمن ولمن كفر، كما أنها تقرر وتؤكد هذه الصفات.

---

[٧٥]يراجع الكشاف ج٤ ص٢١٧ ويراجع شروح التلخيص ج٤ ص٢٩٩، ٣٠٠.

و"أل" فى"اليسرى" و"العسرى" للعهد، لأن المراد بهما عند أئمة التفسير والله أعلم بمراده: الجنة والنار وعبر عنهما بذلك على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الحالية حيث ذكر الحال وأريد المحل ويجوز أن تكون العلاقة فيهما المسببة أو اللزومية.

وعلاقة الحالية أظهر لأنها تكشف عن حال أهل الجنة وحال أهل النار، وتبين الحياة التى يحياها كل فريق منهما وهى أقرب إلى المقابلة التى كشفت أحوال كل فريق. وعبر بالسين فى "فسنيسره" لأن الثواب والعقاب واقعان فى الآخرة والسين حرف استقبال يدل على هذا المعنى وقيل: هى للتوكيد[٧٦]. وقد فصلنا دلالتها على التوكيد عند حديثنا عن آية سورة" آل عمران" السابقة.

و"ما" فى قوله تعالى:" وما يغنى عنه ماله إذا تردى" للنفى ويجوز أن تكون للاستفهام الإنكارى، والمعنى: لاشئ ينفعه إذا تردى[٧٧].

والبخل فى هذه الآيات وارد على بابه من منع إنفاق المال ودليل ذلك أنه وقع مقابلاً لأعطى وهى مشتهرة فى إعطاء المال خاصة إذا حذف مفعولها، وقد جاء فى السورة قوله تعالى:" وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ

---

[٧٦] يراجع روح المعانى ج١٥، ص٣٦٧.

[٧٧] يراجع الكشاف ج٤ ص٢١٧ ومفاتيح الغيب ج١٦ ص٤٥٥ والبحر المحيط ج٨ ص٤٧٨ وروح المعانى ج١٥ ص٣٦٨.

إِذَا تَرَدَّى "[الليل:١١] وهذا يؤكد أن الإعطاء والبخل المذكورين إنما يتعلقان بالمال خاصة[٧٨].

مما تقدم من دراسة مواقع البخل فى القرآن الكريم يظهر للباحث شئ يمكن الاطمئنان إليه- بتوفيق الله- وهو: أن البخل معناه منع إعطاء المال الواجب هذا هو المعنى الحقيقى للفظ فإذا استعمل فى دلالة أخرى غير منع بذل المال يكون هذا الاستعمال مجازيا.

بيان ذلك: إذا قلنا: فلان بخيل وأردنا لا يبذل المال يكون الكلام حقيقة، وإذا استعمل لفظ البخل فى دلالة أخرى فقلنا: بخل فلان بعلمه نريد منع العلم يكون الكلام مجازاً بالاستعارة حيث شبه منع العلم بالبخل بالمال واستعير المشبه به للمشبه على جهة الاستعارة التصريحية وإذا قلت: بخل زيد وليس معى قرينة ينصرف الكلام إلى الحقيقة. وإذا قلت: بخل زيد ومعى قرينة حالية أو لفظية كأن أقول: بخل زيد بعلمه أو بنصحه، أو تكون القرينة حالية كأن يسأل أحد من الناس زيداً عن مسألة فلا يجيب وهو يعلم فيقال: بخل زيد ينصرف الكلام إلى الاستعارة كما ذكرنا.

والذى يطمئن إليه الباحث بعد هذا كله أن كل ما ورد فى القرآن الكريم من استعمال لمادة البخل اسماً أو فعلا ماضيا أو مضارعاً إنما كان استعمالاً حقيقيا ولم يرد مجازاً. هذا والله أعلى وأعلم.

---

[٧٨] يراجع المحرر الوجيز ج٥ ص٤٩٠ وإرشاد العقل السليم ج٩ ص١٦٦ و١٦٧ وروح المعانى ج١٥ ص٣٦٦.

المبحث الثانى

خصائص النظم القرآنى فى مواقع الشح

نعيش الآن مع مواقع" الشح" فى القرآن الكريم ونستعين بالله سبحانه فى التعرف على أسرار نظمها فى كتابه.

١- قال الله تعالى:" وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا "[النساء:١٢٨]

جاءت هذه الآيه المباركة على طريقة الشرط والجزاء ففيها شرطان وجوابهما، وقد ذكرنا بلاغة هذه الطريقة من قبل و"امرأة" فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده، والتقدير: وإن خافت امرأة خافت، لأن "إن" حرف شرط مختص بالدخول على الأفعال دون الأسماء، وحذف الفعل بعد"إن" لدلالة المذكور عليه وهذه الطريقة الأسلوبية تفيد الإيجاز والتوكيد[٧٩].

والخوف فى الآية على بابه لأنه لا يحصل إلا عند ظهور العلامات الدالة على وقوعه كأن يقول الرجل لامرأته كلا ما يدل على النشوز والإعراض مثل: إنك دميمة أو إنك كبيرة وأريد أن أتزوج شابة صغيرة وهكذا ويجوز أن يكون الخوف فى الآيه محمولاً على الظن والتوقع الذى يحدث فى النفس قبل حصول الشئ، وحمل الخوف فى الآية على وقوع النشوز والإعراض دون توقعه هو الظاهر وتأويله

---

[٧٩] يراجع مفاتيح الغيب ج٥ ص٤٧٣ وتفسير القرطبى ج٢ ص٢٠٦٤ وروح المعانى ج٣ ص١٥٥ ويراجع شروح التلخيص ج٢ ص٩، ١٠.

بالوقع والظن ترك للظاهر بدون حاجه كما ذكر الفخر الرازى وأبوحيان وغيرهما[٨٠].

والبعل: الزوج وتطلق هذه الكلمة فى الأصل على السيد وسمى الزوج بذلك، لكونه كالسيد لزوجته[٨١].

والنشوز: أن يتجافى عنها ويمنعها نفسه ونفقته ومودته ويؤذيها بسب أو ضرب.

والإعراض: أن يعرض عنها فيقل محادثتها ومؤانستها لسبب من الأسباب وهو أخف من النشوز[٨٢].

و"أل" فى "والصلح خير" للعهد عند أكثر المفسرين يعنى: الصلح المعهود بين المرأة وزوجها حين يقع النشوز والإعراض خير من الفراق أى: الطلاق الذى يترتب على النشوز والإعراض أو خير من النشوز والخصومة"فخير" على بابها للتفضيل، لأن الطلاق فيه خير أيضاً وقد أباحه الإسلام حين تستعصى المودة والرحمة ولا يمكن استمرار الحياة بين الزوجين، فحدوث الطلاق فى هذه الحالة خير لأن فيه حماية الزوجين أو أحدهما من الوقوع فى الضرر.

وهناك من يرى أن "أل" للجنس والمعنى أن حقيقة الصلح الذى تسكن به النفوس ويزول به الخلاف ويندرج تحته الصلح بين الزوجين خير من

---

[٨٠] راجع مفاتيح الغيب ج٥ ص٤٧٣. والبحر المحيط ج٣ ص٣٧٩ وروح المعانى ج٣ ص١٥٥.

[٨١] تراجع المادة فى المفردات واللسان ويراجع التحرير والتنوير ج٢ ص٣٩٣ وج٣ ص٢١٥.

[٨٢] يراجع الكشاف ج١ ص٣٠٢ والبحر المحيط ج٣ ص٣٧٩ وتراجع مادتى نشر وأعرض فى اللسان

الخيور، فلا يراد بخير التفضيل بل تقرير الشئ وبيان حاله وخير على هذا التقدير يكون مصدراً أو صفة.

والأرجح عند الباحث الوجه الأول لأن فيه اعتناءً بالترغيب فى المصالحة بين الزوجين والحث عليها وهو المناسب للسياق الذى يدعو إلى تحقيق المودة بين الأزواج وقد كرر لفظ الصلح فى الآيه للحث على هذه الفضيلة.

ونصب" صلحاً" فى قوله تعالى" أن يصلحا بينهما صلحاً" على إسقاط حرف الجر والتقدير: بصلح[٨٣] أى: بأى شئ يمكن أن تقع به المصالحه، ونفى الجناح فى قوله" فلا جناح عليهما" يؤكد الحث على هذا الصلح بعينه[٨٤].

ومن لطيف نظم الآية ذكر"الشح" فى قوله تعالى:" وأحضرت الأنفس الشح" فهذا اللفظ هو الأنسب فى هذا السياق لأن هذه الخلافات التى تقع بين الأزواج تدعو إلى ظهور الشح.

يقول أبوحيان- رحمه الله-:" هذا من باب المبالغة جعل الشح كأنه شئ معد فى مكانه وأحضرت الأنفس وسيقت إليه، ولم يأت: وأحضر الشحُ الأنفس فيكون مسوقاً إلى الأنفس بل ا لأنفس سيقت إليه، لكون الشح مجبولاً عليه الإنسان ومركوزاً فى طبيعته"[٨٥].

فالتركيب القرآنى جعل الأنفس هى التى تساق الى الشح. وأصل الفعل" حضر" يتعدى إلى مفعول واحد مثل قولهم: حضر القاضى اليوم

---

[٨٣]هناك وجوه إعرابية أخرى فى "صلحاً" تراجع فى التبيان للعكبرى ج١ ص١٩٧.

[٨٤]يرجع الكشاف ج١ ص٣٠٢ والمحرر الوجيز ج٢ ص١٢٠ ومفاتيح الغيب ج٥ ص٤٧٥ والبحر المحيط ج٣ص٣٧٩ وإرشاد العقل السليم ج١ ص٢٣٩ والتحرير والتنوير ج٣ ص٢١٦ و٢١٧.

[٨٥]البحر المحيط ج٣ ص٣٧٩ وص٣٨٠.

امرأة وأحضرت يتعدى إلى مفعولين تقول: أحضرت زيداً الطعام. فالفعل تعدى بهمزة النقل والتعدية إلى مفعولين. الأول:"الأنفس" الذى قام بعد- بناء الفعل للمفعول- مقام الفاعل، والمفعول الثانى هو: الشح[٨٦].

وبنى الفعل للمفعول لبيان سرعة حضور الأنفس للشح فى حال النشوز والإعراض، أو لأن الأهم هنا هو الحدث دون النظر إلى محدثه، ويجوز أن يكون الحذف للعلم بالفاعل وقد حاول الألوسى- رحمه الله- تقدير الفاعل فقال:" والمراد أحضر الله تعالى الأنفس الشح"[٨٧].

ولست أرى داعياً ملحاً يدعو الألوسى- رحمه الله- إلى تقدير ما قدره، بل أرى أن إرادة وقوع الحدث وسرعته هو الأهم وإذا لزم تقدير الفاعل فليكن التقدير معتمداً على السياق، فيقدرالفاعل من واقع سياق الآيه، مثل: النشوز والإعراض ويكون الكلام محمولاً على المجاز العقلى بعلاقة السببية، لأن النشوز والإعراض هما السبب الذى قاد النفس إلى الشح، وهذا التقدير هو الأرجح- والله أعلم- لأنه يبين الدافع الذى دفع النفس إلى الشح ويظهر خطورة وجوده وشدة تأثيره وهذه الجملة وقعت اعتراضاً للتنبيه على خطورة الشح وللحث على مخالفة الطبع[٨٨].

ثم ختمت الآيه بهذا الشرط:" وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا" ترغيباً فى الإحسان والتقوى وذكر الإحسان هنا ينبه الزوجين وغيرهما إلى مزيد بذل عطاء النفس فى مقابلة الشح وفيه بيان أن ذلك من الإحسان والتقوى. وجاء الالتفات إلى الخطاب لتنبيه كل

---

[٨٦]التبيان فى إعراب القرآن للعكبرى ج١ ص١٩٧ بتصرف قليل ويراجع تفسير النسفى مجلد١ ص٣٦٥ وحاشية الشهاب ج٣ ص١٨٥.

[٨٧]روح المعانى ج٣ص١٥٦.

[٨٨]يراج الكشاف ج١ ص٣٠٢.

من يتأتى خطابه وحثه على أن يترفع عن مثالب النفس ويرتقى إلى درجة الإحسان التى تظهر رقة الأخلاق ونقاء النفس وصفاء الروح سواء أكان هذا فى جانب الزوجين أم كان فى جانب المصلحين. فعلى الجميع أن يترفع فيحسن ويتقى.

وختمت الآيه بصفة"الخبير" وهو العالم بما يلطف ويخفى إدراكه لبيان أن هناك من الأسرار والخفايا بين الزوجين ما لا يطلع عليه إلا الله تعالى[٨٩].

وهذا ينبه الزوجين وينبه- أيضاً- من حضر الصلح إلى وجوب مراعاة هذه الأسرار فلا يصح لأحد أن يكشف ما أراد اللطيف ستره، كى لا يفضح الله أمره وهذه دروس قرآنية ذات قيمة عالية فى تحقيق الصلاح والسعادة فى المجتمع المسلم الذى ينبغى أن يقوم على: الإحسان والتقوى.اللهم ارزقنا سلامةالسريرة وحسن السيرة وأنعم علينا بأخلاق هذا القرآن العظيم.

٢- وفى قوله تعالى:" قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلا، أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا" [الأحزاب:١٨، ١٩]

بيان لبعض صفات المنافقين الذين أرادوا صرف الناس عن نصرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، والتعبير" بقد يعلم" يفيد تحقيق

---

[٨٩]يراجع البحر المحيط ج٣ ص٣٨٠ وروح المعانى ج٣ص١٥٧

علم الله تعالى بأعمالهم ومراقبته سبحانه الدائمة لأحوالهم، وفيه تهديد ووعيد شديدين لهم[٩٠].

و"المعوقين" هم المثبطون عن رسول الله(صلى الله عليه وسلم) وأصل الفعل: عاق أى: صرف وحبس ومنه التعويق وهو صرف الناس عن الشئ ومنعهم منه والمعوق اسم فاعل من عَوَّق[٩١].

والتعبير باسم الفاعل:" المعوقين"،"القائلين" يفيد أن هذه الأوصاف كانت مستقرة فيهم ومستمرة معهم، وأنه لا أمل فى حصول الإيمان منهم. وقوله:" منكم" يدل على أنهم كانوا مندسين فى صفوف المسلمين وهذا يؤكد أن الآيات نزلت فى المنافقين ولم تنزل فى اليهود كما ورد عند بعض المفسرين.

والتعبير بـ"إخوانهم" يوحى إلى أن هناك من استمع إليهم ومال إلى مقاصدهم. ومن فضل الله على عباده إنه لم يصرح بأسمائهم بل جعلها مستورة حتى يبقى على وحدة الأمة وتماسكها.

إن هذه الجماعة التى قصدها القرآن كانت ضمن صفوف المسلمين وبعبارة أدق كانت مندسة بين الصفوف. والدليل على ذلك أنهم كانوا يأتون البأس ضمن صفوف المسلمين ودليل آخر هو قوله تعالى:"منكم" ويبدو أنهم كانوا مستعدين لتكوين جبهة ضد الجماعة

---

[٩٠]يراجع فى ظلال القرآن ج٥ ص٢٨٤٠ والتحرير والتنوير ج١٠ ص٢٩٣ ومن أسرار التعبير القرآنى دراسة تحليلية لسورة الأحزاب د/ محمد أبو موسى ص١٢٨، ١٢٩، ١٣٠.

[٩١]تراجع المادة فى اللسان.

المسلمة وقد حاولوا أن يستميلوا بعض الأفراد ويغـروهم بالاسـتماع إليهم ويكشف عن هذا قولهم:" هلم إلينا".

وقد كشف الله أسرارهم ووصـفهم بأربعـة أوصـاف واضـحة ظاهرة:

الوصف الأول:"لايأتون البأس إلا قليلاً" أى: لا يحضرون القتـال إلا زمناً قليلاً، أو لا يقاتلون إلا قتالاً قليلاً فـ"قليلاً" وصف للزمن أو للفعل، فهم يفعلون ذلك رياء إذا اضطروا إليه ولا قيمة له أصلاً[٩٢]

ومن لطيف نظم الآيه التعبير عن القتال أو الحرب بالبأس الـذى معناه: المشقة والعذاب الشديد ومنه البؤس وهو الشدة والفقر[٩٣].

إن القرآن يبرز كرههم الشديد للجهاد فى سبيل الله ويبين شـدة وقعه فى نفوسهم، فهم لم ينظروا إليه النظرة المثالية بل كرهوه غايـة الكره ونفروا منه أشد النفور، ولأجل ذلك حسن ذكر كلمة "البأس" فـى هذا السياق دون كلمة: الحرب أو القتال مثلاً، والبـأس: مسـبب عـن القتال أو لازم له وفى هذا التعبير مجاز مرسل وعبر عنه بـذلك للعلـة التى ذكرناها.

الوصف الثانى: "أشحة عليكم" وهذا الوصف جاء متناسباً مع ما قبله وما بعده من أوصافهم التى ذكرها القرآن، إنهم حريصون علـى منـع

---

[٩٢]يراجع الكشاف جـ٣ ص٢٣١ والبحر المحيط جـ٧ ص٢١٤ وروح المعـانى جـ١١ ص١٦١، ١٦٢.

[٩٣]تراجع المادة فى اللسان.

الخير وقد طبعت نفوسهم على ذلك وتحقق هذا فى تعويقهم الناس وصرفهم عن رسول الله(صلى الله عليه وسلم) وفى عدم حرصهم على القتال، لذلك صرح القرآن بالوصف الذى حملهم على كل ذلك وهو"الشح" فوقع ذكره مناسباً غاية المناسبة للسياق والمقام.

و"الشح" كما ذكرنا من قبل هو حرص النفس على منع الخير سواء أكان موجودا عند الشخص أم كان عند غيره وسواء أكان عنده مال أم لم يكن وهذا المعنى يخالف معنى البخل الذى ذكرناه من قبل، لأنه يختص بمنع المال، كما أن وصف الشح وقع مناسبا لما بعده من أوصافهم التى ذكرها القرآن ولذلك تكرر ذكر "الشح" فى الآيه وسيأتى بيان سر ذلك إن شاء الله.

الوصف الثالث: "فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت" وهذا الوصف القرآنى يصور هلعهم الشديد حين وقوع القتال ومجئ هذا الوصف بأسلوب الشرط يدل على التلازم والترابط بين دوران أعينهم المعبر عن الهلع الشديد والرعب المؤكد وبين مجئ الخوف وحصول القتال.

والتعبير"بإذا" الشرطية لبيان تحقق وقوع الشرط والجزاء. وتأمل كيف صور القرآن ضعف قلوبهم وهلع نفوسهم فى قوله:" جاء الخوف" وكأن الخوف شئ يتحرك ويتجه بسرعة إليهم.

إن الفرق واضح وكبير بين من يذهب إلى أرض المعارك فيأتى القتال وهو بطل مغوار وبين من يفرض عليه القتال وهو جبان خوّار.

والخوف شئ معنوى لكن القرآن يصوره فى صورة الجيش القادم من بعيد ليهدد قلوب المنافقين من جديد، إنه يأتى ويذهب ثم يأتى ويذهب ويستمر هكذا ليتلاعب بقلوبهم وعقولهم الفارغة من الإيمان.

وهذا شأن العصاة أصحاب المصالح والأهواء فى كل زمان ومكان لا تهدأ قلوبهم ولا تستقر نفوسهم، إنهم فى رعب دائم من المحاسبة أمام قانون الدنيا، وأمام قانون الضمير- إن وجد- وفى رعب من أشياء أخرى يخشون أن تطلع فجأة عليهم لأنهم طرقوا أبواب المعاصى التى لا تفتح إلا لمن طرقها ولا تقفل فى وجه من فتحها إنها مأساة تلحق بكل العابثين الذين لم تستقم خطواتهم لأنهم لم يسيروا فى طريق النجاة!!.

تأمل قول الله:" ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت" إنها صورة واضحة المعالم فيها شكل وحركة وهى فى ذات الوقت تثير السخرية فى نفس القارئ من هذا الصنف الجبان من البشر.

إن القرآن يصور استيلاء الرعب عليهم وتأثيره المباشر على جوارحهم فهى لا تهدأ أبداً، إنهم يحدقون بنظرهم فى كل الجهات لانهم يتوقعون وقوع المصائب من كل ناحية. القرآن يشبه حركة دوران أعين أولئك المنافقين وهم ينظرون إلى رسول الله(صلى الله عليه وسلم) بحركة دوران عين المحتضر الذى إصابه خوف المصير

المجهول. ووجه الشبه اضطراب الحركة المسبب عن عدم وجود الأمان[٩٤].

وهذا التعبير القرآنى الذى يصور حالهم الشديد من الرعب يبين- أيضا- ا نصرافهم عن رسول الله(صلى الله عليه وسلم) فقد تشاغلوا عنه- وهم فى حضرته- بأشياء دارت أعينهم إليها وتشاغلت قلوبهم بها عن رسول الله(صلى الله عليه وسلم) وهذا فى حد ذاته ذنب خطير وذم كبير.

والتعبيربـ" تدور أعينهم" مجاز مرسل بعلاقة المحلية حيث عبر بالأعين وأراد الأحداق التى بداخلها، وهذا التعبير فيه ما فيه من المبالغة فى تصوير ما لحقهم من الرعب حيث جعل العيون كلها تدور بما فيها من جفون وأهداب وأحداق ولم يقصر الدوران على حدقة العين وحدها.

والتعبير بـ" تدور" دون تلتفت أو تتحرك يصور الحركة الدائمة التى تظهر فى الدوران أكثر من ظهورها فى التلفت وغيره[٩٥].

الوصف الرابع:" فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير" وهذا الوصف يصور حالة أخرى من أحوالهم التى تظهر سوء

---

[٩٤]يراجع الكشاف ج٣ ص٢٣١ والبحر المحيط ج٧ ص٢١٤، ٢١٥ وروح المعانى ج١١ ص١٦٢ وفى ظلال القرآن ج٥ ص٢٨٤٠ والتحرير والتنوير ج١٠ ص٢٩٧ ومن أسرار التعبير القرآنى ص١٣٩.

[٩٥]يراجع من أسرار التعبير القرآنى ص١٣٨.

أخلاقهم وفساد قلوبهم والمعنى: إذا ذهب العدو وانتهى القتال وحيزت الغنائم آذوكم بالكلام وخاصموكم بألسنة ذربة سليطة.

وفى هذه الآيه مقابلة بين أحوالهم وهذه المقابلة تظهر التغيير المفاجئ فى أحوالهم فهم متقلبون لا يثبتون على حال.

وفى قوله:" سلقوكم بألسنة حداد" صورة بيانية تبين شدة أذاهم للمسلمين، فقد استعير السلْق وهو فى الأصل التقطيع والتمزيق والإحراق للأذى والإهانة على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية والجامع شدة التأثير وحصول الأذى فى كل، ويجوز أن تكون الاستعارة فى "ألسنة" حيث شبهت بالسيوف بجامع الأذى والتأثير فى كل وحذف المشبه به ورمز له بشئ من لوازمه وهو السلق على طريقة المكنية، وهذا التصوير القرآنى يدل على شدة كيد المنافقين وكثرة آذاهم للمؤمنين فى جميع أحوالهم فقد صارت ألسنتهم كالسيوف التى تمزق الجسد!! [٩٦].

وقد كشف عن كيدهم الشديد لهذا الدين تكرار لفظ "أشحة" فى قوله تعالى"أشحة عليكم" فقد وقع التكرار مناسباً غاية المناسبة لهذا السياق، لأنه يكشف عما فى نفوسهم من حقد وكره منعهم من تقديم أى خير لأتباع هذه الدين الجديد، فقد وصلوا إلى مرحلة سيئة من أمراض القلوب التى لاأمل فى علاجها ولا خير يرتجى من ورائها.

---

[٩٦]يراجع روح المعانى ج١١ ص١٦٣ ومن أسرار التعبير القرآنى ص١٤٠.

وأل فى" الخير" للجنس، إنهم شحوا بكل جنس الخير وكأنهم لم يعودوا قادرين على تمييز أى نوع من أنواع الخير ليقدموه إلى الناس[٩٧].

ثم حكم الله عليهم بحكمه الصادق الذى يظهر حقيقة قلوبهم وهذا الحكم فيه عزة الربوبية، لأنه لا يقدر على الكشف عن أسرار القلوب ومعرفة مصير الناس إلا خالقهم سبحانه قال تعالى:" أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا" و"أولئك" إشارة إلى الموصوفين بما ذكر من الأوصاف السابقة وعبر عنهم بالإشارة لتمييزهم بها ولبيان أنهم جدراء بما بعد اسم الإشارة لما ورد من أوصافهم السابقة وفيه أيضاً بيان لبعدهم عن رضوان الله، وفى حكم الله عليهم بعدم الإيمان فى قوله:" لم يؤمنوا" كشف لأسرارهم وفضح لعيوبهم لأنهم كانوا يوهمون المسلمين بأنهم مؤمنون وأنهم معهم[٩٨].

ثم صور الله تعالى عدم قبول أعمالهم وإبطال ثوابها بقوله:" فأحبط الله أعمالهم" وأصل الحبط: أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا تخرج ما فيها فتموت[٩٩].

وقد ورد فى الحديث الشريف ما يوضح هذا المعنى فى قول رسول الله(صلى الله عليه وسلم):" وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا"[١٠٠].

---

[٩٧]يراجع البحر المحيط ج٧ص٢١٤ وروح المعانى ج١١ ص١٦٣.
[٩٨]يراجع التحرير والتنوير ج١٠ ص٢٩٨.
[٩٩]تراجع المادة فى المفردات واللسان.

وفى هذا التعبير القرآنى صورة بيانية بديعة حيث شبه إبطال الأعمال بالحبط الذى هو فى الأصل داء يصيب بطون الدواب حتى يقتلها بجامع عدم حصول النفع فى كل وتنوسى التشبيه واشتق من الإحباط بمعنى الإبطال أحبط بمعنى أبطل عن طريق الاستعارة التصريحية التبعية وهذا التعبير القرآنى يصور أعمال المنافقين بالجيف الفاسدة المنتفخة التى تملأ الكون ضرراً وفساداً.

وكان من دلائل عزة الربوبية ورفعة الألوهية أن يختم الله الآيه بقوله:" وكان ذلك على الله يسيرا" وفى هذا بيان لسيطرة الله المطلقة وقدرته الغالبة فلا يقدر على إهانة أولئك الطغاة وأشباهم إلا قوى قادر لا يمنعه أحد عن فعل ما يريد والتصريح باسم الجلالة فى ختام الآيه وضع للظاهر موضع الضمير وفيه ما فيه من تربية المهابة فاسم الجلالة يشعر بالهيمنة والسيطرة على كل ما فى هذا الكون الفسيح[١٠١].

يقول الزمخشرى- رحمه الله- عن سر التعبير بـ"أحبط الله أعمالهم":" فإن قلت: هل يثبت للمنافق عمل حتى يرد عليه الإحباط قلت: لا، ولكنه تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان وإن لم يوطئه القلب وأن ما يعمل المنافق من الأعمال يجدى عليه فبين أن إيمانه ليس بإيمان وأن كل عمل يوجد منه باطل وفيه بعث على اتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من

---

[١٠٠] يراجع فتح البارى ج٣ ص٣٨٣ وشرح أحاديث من صحيح البخارى ص٢٤٤ إلى ص٢٥٥.

[١٠١] يراجع من أسرار التعبير القرآنى ص١٤٣، ١٤٤.

غير تصحيح المعرفة كالبناء على غير أساس وأنها مما يذهب عند الله هباءً منثوراً"[١٠٢].

فالزمخشرى رحمه الله يرى أن أعمالهم باطلة فى الأصل وغير مقبولة وأراد الله أن يظهر ويعلن بطلانها، ليتعلم الناس أن الأعمال لا تقبل إلا بالإيمان السليم.

٣- وفى قوله تعالى:" وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "[سورة الحشر:٩]

نرى أوصافا جليلة للأنصار رضوان الله عليهم أجمعين، فهم الذين تبوءوا الدار أى: سكنوها وأقاموا بها، والمقصود بالدار دار الهجرة وهى المدينة المنورة والتعريف فيها للعهد، وفى هذا التعريف تنويه بشرفها فهى الجديرة بأن تسمى داراً[١٠٣].

وتبوؤ الدار ظاهر. أما تبوؤ الإيمان فيحتاج إلى تأويل، لأنه لا يصح فى الظاهر أن يكون مفعولاً للفعل المذكور، لأنه ليس مكانا فيتبوأ.

---

[١٠٢] الكشاف ج٣ص٢٣١.

[١٠٣] يراجع روح المعانى ج١٤ ص٢٤٥ والتحرير والتنوير ج١٣ ص٩٠ وقد عقد الإمام البخارى فى صحيحه باباً تحت عنوان:" والذين تبوءوا الدار والإيمان" وروى فيه حديثا يؤكد أن الأيه نزلت فى الأنصار. يراجع فتح البارى ج٨ ص٤٩٩.

وقد ذكر المفسرون وجوها كثيرة فى بيـــان ذلـــك، أشـــهرها أن الكلام من باب عطف الجمل والتقدير: تبوءوا الدار وأخلصـــوا الإيمـــان فيكون كقوله: علفتها تبناً وماءً بارداً[١٠٤].

والمتأمل فى هذا النظم الشريف يدرك أن هذه الصـــفات خاصـــة بجماعة"تفردت بصفات وبلغت إلى آفاق لولا أنها وقعت بالفعل لحســـبها الناس أحلاماً طائرة ورؤى مجنحة ومـــثلا عليـــا قـــد صـــاغها خيـــال محلق"[١٠٥].

فعلى الباحث إذاً إن يراعى الخصوصية التى وجدت فى الأنصـــار وأن يدرك أن هذه الأوصاف لا يمكن أن تكون لغيرهم، لأنهـــا أوصـــاف فريدة!.

إن تبوء الإيمان فيه صورة بيانية لطيفة، حيـــث شـــبه الإيمـــان بالمنزل الذى يسكنه الإنسان ويطمئن فيه بجامع الراحـــة والاســـتقرار والتمكن فى كل ثم حذف المشبه به ورمز له بشئ مـــن لوازمـــه وهـــو التبوء على سبيل الاستعارة المكنية واثبات التبوء للإيمان تخييل[١٠٦].

وهذا التوجيه البلاغى أقرب الوجوه التى تصور حـــب الأنصـــار للإيمان، فهو وطنهم الذى تعيش فيه قلوبهم وتســـكن إليـــه أرواحهـــم

---

[١٠٤]يراجع الكشاف ج٤ ص٨٢ ومفاتيح الغيب ج١٥ ص٤٧٨ وتفســـير القرطبـــى ج١٠ ص٦٧٤٤ والبحر المحيط ج٨ ص٢٤٥.

[١٠٥]فى ظلال القرآن ج٦ ص٣٥٢٦.

[١٠٦]يراجع حاشية الشهاب ج٨ ص١٧٩ وروح المعانى ج١٤ ص٢٤٥ والتحريـــر والتنوير ج١٣ ص٩٠.

ويجدون فيه الطمأنينة والأمان والراحة التى يجدونها فى ديارهم التى يسكنونها[١٠٧].

ويجد المتأمل فى الجار والمجرور "من قبلهم" لطيفة تتعلق بمدح الأنصار، إنهم أحبوا الدين واطمأنوا إليه وسعدوا به كما أحبوا ديارهم التى عاشوا فيها وقد حدث لهم كل ذلك قبل هجرة المهاجرين إليهم.

إذاً هم ليسوا بحاجة إلى من يعلمهم هذا الدين لأنهم مؤمنون عالمون بهذا الدين. فلو كانت الأمور تقاس بمقياس الظاهر من الدنيا فليس هناك فائدة تعود عليهم من هجرة أقوام يتوافدون عليهم كل يوم ليشاركوهم فى كل شئ مما يملكون.

وضمائر الجمع فى الآيه" من قبلهم"، "مما أوتوا" يدل على أنهم أحبوا جميع إخوانهم المهاجرين ورحبوا بهم جميعا ولم يكن الحب والترحيب خاصاً برسول الله(صلى الله عليه وسلم).

ومن اللطائف البلاغية فى الآيه قوله تعالى:" هاجر إليهم" فهم هاجروا إلى الأنصار وليس إلى المدينة والفرق واضح وكبير بين قولنا: هاجر إلى المدينة وبين قوله تعالى:"هاجر إليهم" وهذا وصف دقيق ومعبر عن حقيقة الأنصار فقد أدركوا أنهم الملاذ الآمن لإخوانهم المهاجرين.

---

[١٠٧]يراجع فى ظلال القرآن ج٦ ص٣٥٢٦.

فالهجرة إذاً ليست لأرض مجردة من أهلها، إنما كانت الهجرة لأقوام لهم صفات معينة وقد شاء الله أن يكونوا فى يثرب. ولو كان الأمر يتعلق بهجرة إلى أرض تبعدهم عن مكه لخرج المسلمون إلى أماكن أخرى قد تكون الأقرب أو الأسهل.

ثم وصفهم الله بقوله:" ولا يجدون فى صدروهم حاجة مما أوتوا" وهو وصف نادر إن لم يكن مستحيلاً فى حياة الناس اليوم ومعناه كما ذكر الزمخشرى:يعنى أن نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شئ مما يحتاج إليه"[١٠٨].

واختيار" حاجة" دون غيرها من الألفاظ وإيرادها نكرة فى سياق النفى ليعم نفى كل شئ يمكن أن تميل إليه النفس فى هذا المقام صغيراً كان أو كبيراً.

والمعنى- والله أعلم بمراده- لا حاجة فلا وجدان لأنه لو كانت فى نفوسهم حاجة لأدركوها وأحسوها وهذا ما يسمى: نفى الشئ بإيجابه كما فى قول الشاعر: لا ترى الضب بها ينجحر، وهذا الوصف دليل على طهارة قلوبهم وصفاء نفوسهم[١٠٩].

وعبر بالصدور على القلوب عن طريق المجاز المرسل بعلاقة المحلية أو المجاورة وفى هذا ما فيه من المبالغة فى مدح سرهم الذى لا يطلع عليه إلا الله سبحانه وهذه الآيه المباركة تكشف عن فضيلة

---

[١٠٨] الكشاف ج٤ ص٨٢.

[١٠٩] يراجع روح المعانى ج١٤ ص٢٤٦ وفى ظلال القرآن ج٦ ص٣٥٢٦ والتحرير والتنوير ج١٣ ص٩٢.

معينة نالها المهاجرون دون الأنصار- رضوان الله عليهم جميعا- وقد عبر القرآن عنها بقوله:"مما أوتوا".

وهذه الخاصية لا تتعلق بعطاء مادى من تقسيم الغنائم أو الفيئ أو غير ذلك مما ذكره بعض المفسرين. بل هى تتعلق بالهجرة ذاتها.

فللهجرة مكانها وشرفها فى الإسلام وهذه الفضيلة لم ينالها أحد فى تاريخ الإسلام غير أولئك العظماء الذين قال الله فيهم:" الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ "[الحشر:٨]

وقدم المهاجرون فى قوله تعالى:" لَقَد تَّابَ اللَّه عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ "[التوبه:١١٧] وفى قوله"وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ"[التوبه:١٠٠] لهذا الشرف، ويدل على فضيلة الهجرة قول النبى(صلى الله عليه وسلم):" لولا الهجرة لكنت أمرأ من الانصار". وبهذا كله احتج الصديق أبوبكر- رضوان الله عليه- على تفضيل المهاجرين وتعيين الإمامة فيهم[١١٠].

ولعل التعبير بـ"أوتوا" دون أعطوا يؤكد هذا الشرف لما عرف من أن الإيتاء أعظم وأرفع من الإعطاء وقد راعى القرآن ذلك فعبر بالإيتاء فى جانب القرآن لبيان عظمته وعلو قدره قال تعالى:" وَلَقَدْ

---

[١١٠] يراجع البرهان للزركشى ج٣ ص٢٥٦.

آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ "[الحجر:٨٧] وعبر بالإعطاء فى جانب الكوثر قال تعالى:" إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ"[الكوثر:١] لأن النبى(صلى الله عليه وسلم) وأمته يردون على الحوض ثم يرتحلون عنه إلى منازل العز فى الجنان وهو مقام أعظم(١١١).

ثم وصفهم الله بقوله:" ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة" وحذف مفعول" يؤثرون" مراعاة للإيجاز للعلم به والتقدير: ويؤثرون المهاجرين. ويجوز أن يكون حذف المفعول تنزيلا للمتعدى منزلة اللازم لبيان حدوث الإيثار ووقوعه وأنه صار صفة لازمة لهم دون النظر إلى من يقع عليه.

والخصاصة تطلق فى الأصل على خصاص البيت أى فروجه وفتحاته التى تكون بين عيدانه ويسمى بيت القصب أو الشجر خصا لما يرى من الخصاصة التى تكون فيه(١١٢).

والمراد بالخصاصة فى الآيه: الحاجة والفقر والتعبير عنها بذلك مجاز مرسل علاقته المسببية أو اللزومية وفى هذا التعبير بيان لشدة حاجتهم للشئ الذى يؤثرون به إخوانهم المهاجرين وهذا التعبير يوحى بالمكاشفة والمصارحة التى حدثت بينهم فلم يوجد ما يكن إخفاؤه.

---

(١١١) يراجع السابق ج٤ ص٨٥، ٨٦.

(١١٢) يراجع الكشاف ج٤ ص٨٢ ومفاتيح الغيب ج١٥ ص٤٧٨ وص٤٧٩ وتفسير القرطبى ج١٠ ص٦٧٥٠ والبحر المحيط ج٨ ص٢٤٦ وروح المعانى ج١٤ ص٢٤٦ وتراجع المادة فى المفردات واللسان.

والتعبير بالمضارع"يحبون"،"لايجدون" "يؤثرون" يدل على تجديد هذه الصفات فيهم وعدم توقفها فهى تتكرر فى كل موقف.

ثم ختمت الآيه بقوله تعالى:" ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" وهذه الجملة وقعت تزييلا جارى مجرى المثل فى الاستقلال وهى تؤكد مفهوم الكلام السابق[١١٣].

وقد نظمت هذه الجملة بأسلوب الشرط الذى تترتب فيه المعانى على بعضها وتبنى فيه النتائج على مقدماتها وهى أحكام قضائية مبنية على حكم ربانية.

وجاء التعبير القرآنى:"يوق شح نفسه"مناسباً لهذه الصفات العظيمة التى ذكرها الله تعالى للأنصار لأنه لا ينال هذه الصفات إلا سليم النفس رقيق الطبع، نقى الصدر والسريرة وقاه الله شح نفسه وهداه إلى صالح أمره.

وجاء"يوق" مبنيا للمفعول، للعلم بالفاعل لأنه لا يقدر على دفع شح النفس إلا الله سبحانه، وأضيف الشح إلى النفس لأنه غريزة فيها لا يزحزح عنها إلا بتوفق الله لصاحبها[١١٤].

وأشير إليهم بالبعيد فى قوله:" فأولئك هم المفلحون" لتعظيمهم وبيان رفعة درجاتهم، وعرّف المسند بأل الجنسية لإفادة القصر، حيث

---

[١١٣] يراجع روح المعانى ج١٤ ص٢٤٧ والتحرير والتنوير ج١٣ ص٩٤.
[١١٤] يراجع الكشاف ج٤ ص٨٢ ومفاتيح الغيب ج١٥ ص٤٧٩ وروح المعانى ج١٤ ص٢٤٧.

قصرت صفة الفلاح على "أولئك" المشار بها إلى من يوق شح نفسه وهو قصر على جهة المبالغة لبيان أهمية هذه الصفة و"هم" ضمير فصل جاء لتوكيد القصر، لأن القصر مفهوم بتعريف الطرفين[١١٥].

٤- وقوله تعالى:" فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "[التغابن:١٦]

جاء بعد الحديث عن فتنة المال والولد الواردة فى قوله تعالى:" إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ...."[التغابن:١٥]

وقد ارتبط قوله تعالى:" فاتقوا الله...."بالآية السابقة بفاء الفصيحة التى أفصحت عن شرط مقدر يعنى إذا علم ذلك فاتقوا الله ما استطعتم.

وهذا الآيه المباركة فيها أربعة أوامر هى:"اتقوا"،"اسمعوا"،"أطيعوا"،"أنفقوا" وقد رتبت هذه الأوامر ترتيبا بليغا، فتقدم الأمر بالتقوى، لأن التقوى هى الأساس الذى تبنى عليه كل الأوامر التى بعدها، وهى السبب فى وجود ما بعدها.

والتقوى تتحصل فى القلب فإذا صلح القلب صلحت كل الجوارح فترى المرء التقى حريصاً على سماع ما يوعظ به، وإذا سمع أطاع الله فيما أمر به وفيما نهى عنه، ومن دلائل التقوى والسمع والطاعة الإنفاق فى وجوه الخير.

---

[١١٥] يراجع تعريف المسند بأل فى دلائل الإعجاز ص١٧٩ إلى ص١٩٨ ويراجع علوم البلاغة للمراغى ص١٢٢ والتحرير والتنوير ج١٣ ص٩٥.

والخطاب فى هذه الآية للمؤمنين الذين ناداهم الله بقوله:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...."[التغابن:١٤] والأوامر الأربعة فى هذه الآية واردة للوجوب وتركها يدخل المرء فى باب الحرمة.

وهذه الأوامر موجودة فى المؤمنين المخاطبين بها وقد أمروا بها للحث على الاستمرار فيها والدوام عليها.

وجاء قوله تعالى:"خيراً لأنفسكم" مؤكدا للحث على الالتزام بها. ونصب"خيراً" على أنه مفعول لفعل مقدر دل عليه المذكور وتقديره: ائتوا خيراً أو أنه نعت لمصدر محذوف تقديره: انفاقا خيراً، أو يكون مفعولاً به لـ"أنفقوا" ومنهم من أجاز أن يكون"خيراً" "خبراً" لكان المحذوفة التى وقعت جوابا للأوامر المذكورة فى الآيه[١١٦].

وقد وردت تقوى الله فى هذه الآيه مقيدة بقوله"ما استطعتم" و"ما" مصدرية زمانية أى: مدة استطاعتكم وذلك يعم الأحوال والأزمان كلها[١١٧].

ويرى بعض المفسرين أن هذه الآيه ناسخة لقوله تعالى:" اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ"[آل عمران:١٠٢] فحين نزلت هذه الآيه اشتد الأمر على القوم حتى ورمت أقدامهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تخفيفا عليهم "فاتقوا الله ما استطعتم" فنسخت هذه الآية آية "آل عمران".

---

[١١٦] يراجع الكشاف ج٤ ص١٠٦ وتفسير القرطبى ج١٠ ص٦٨٧١. وحاشية الشهاب ج٨ ص٢٠٤ والفتوحات الإلهية ج٤ ص٣٦٨.

[١١٧] يراجع مغنى اللبيب ج١ ص٣٠٤.

وقد رد كثير من أئمة التفسير القول بالنسخ ورأوا أن القول بـه لا يصح هنا، لأن قوله تعالى:" حق تقاته" لا يراد بـه الاتقـاء فيمـا لا يستطعيون لأنه فوق الطاقة والمقدرة، وعلى هذا الفهم لا يوجد النسـخ والآية محكمة.

والظاهر- والله أعلم بمراده- أن قوله تعالى"ما استطعتم" لـيس فيه تخفيف ولا تشديد ولكن فيه عدل وإنصـاف، لأن المقصـود بـذلك عبادة الله من غير تقصير ولا إفراط وهى العبادة الممدوحة التى تظهـر وسطية الإسلام وصلاحه لكل زمان ومكان[١١٨].

ثم ذيلت الآيه بقوله تعالى:" ومن يوق شح نفسه فأولئـك هـم المفلحون"وبنى الفعل للمفعول للعلم بالفاعل وهـو الله تعـالى، وأشـير إليهم بالبعيد لبيان بعد درجتهم وعلو مكانتهم. وفى الآيه قصـر صـفة الفلاح عليهم وهو قصر على جهة المبالغة فى تحقق وصف المفلحـين وكأنه نزل فلاح غيرهم منزلة العدم، وجاء"هم" لتوكيد هذا القصر[١١٩].

وهذا الشرط مثل ما ورد فى ختام آيه سورة الحشـر السـابقة، وقد وقع ذكر الشح فى الآية مناسباً غاية المناسبة للسـياق والمقـام، لأن هذه الصفات التى أمر الله بها تنقى النفس وتهذب الضـمير وتنيـر

---

[١١٨] يراجع مفاتيح الغيب ج١٥ ص٥٦٣، ٥٦٤ وتفسير القرطبى ج١٠ ص٦٨٦٩ وص٦٨٧٠ والبحر المحيط ج٨ ص٢٧٦ ونظم الدرر ج٨ ص٢٠ وروح المعانى ج١٤ ص٣٢٢ والتحرير والتنوير ج١٣ ص٢٨٧، ٢٨٨.

[١١٩] يراجع نظم الدرر ج٨ ص٢٠ والتحرير والتنوير ج١٣ ص٢٨٩.

البصيرة فيتخلص المرء مما طبعت عليه نفسه وينغمس فـــى طاعـــة ربه.

الخاتمة

الحمد لله الذى أرشدنى إلى هذا البحث المبارك ويسر سبيله وأعان على إتمامه والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله، وبعد:

ففى ختام هذه الرحلة الطيبة مع هذا البحث المبارك نجمل أهم ما أمكن التوصل إليه فيمايأتى:

١- وردت مادة "بخل" اثنتا عشر مرة فى القرآن الكريم وجاءت مختلفة الصيغة بما يناسب السياق ووقعت فى القرآن المدنى باستثناء موقع واحد اختلف فيه وذكرنا مناسبة ذلك. وورد "الشح" مصدراً وجمعاً فى خمسة مواضع فى القرآن الكريم ووقع فى القرآن المدنى وذكرنا مناسبة ذلك.

٢- ذكر الباحث معنى" البخل" و"الشح" عند أئمة اللغة والتفسير، والفروق الدلالية بينهما وظهر أن لكل لفظ دلالته الخاصة ولا يقوم لفظ مقام الآخر فى هذه الدلالة، وقد راعى القرآن الكريم ذلك.

٣- جاء البخل فى القرآن الكريم على بابه واستعمل فى حقيقته من منع انفاق المال ولم يستعمل مجازاً فى أى موقع ورد فيه وذكرنا ما يؤيد ذلك من مقام الكلام وسياقه.

٤- ورد الشح فى سياق الحديث عن النفس وأضيف فى أكثر المواقع إلى النفس لبيان أنه طبع أصيل فيها، وبنى الفعل "يوق" للمفعول للعلم بالفاعل إذا لا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه، وقصر الفلاح على من وقى شح نفسه، لأن الشح رأس الحية كما قيل وهو أخطر

من البخل، لأنه يحمل النفس على فعل كثير من المصائب كما أنه سبب فى وجود البخل.

٥- لكل كلمة فى اللغة العربية دلالتها الخاصة وهذه الخصوصية فى الدلالة تفيد فى التعرف على المعنى الدقيق وظهر ذك فى تأمل دلالة "أوتوا" فى آيه سورة الحشر.

٦- كان من خصوصيات نظم "الشح" وأكثر مواقع البخل وروده على طريقة الشرط والجزاء وقد ذكرنا خصوصيات هذا الأسلوب وأن الجمل مهما طالت فيه فالمعنى المراد كالشئ الواحد، وهذا يجعل جملة الشرط والجزاء كالجملة الواحدة بل مثل الاسم المفرد فى امتناع أن تحصل به وحده الفائدة كما ذكر الإمام عبدالقاهر فى أسرار البلاغة، وذكرنا أن هذا النمط العالى من الأساليب يحتاج إلى كثير من البحوث الجادة التى تبرز أسراره فى القرآن الكريم ولغة العرب.

٧- ذكر الباحث ما فطن إليه فخر الدين الرازى من الأحوال الإعرابية للأفعال المعطوفة على جواب الشرط ودلالة اتحاد الإعراب أو عدمه فى الكشف عن المعنى المراد.

وقد ورد فى هذا البحث كثير من اللطائف البلاغية التى يمكن التعرف عليها من خلال قراءته.

هذا والله نسأل أن يتجاوز عما وقع من سهو أو تقصير، وأن يحقق منه ما ينفع، ويجعله من الأعمال التى تشفع. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المراجع

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للإمام أبـــى الســـعود ط دار إحياء التراث العربى ببيروت- لبنان.

٢- أسباب النزول لجلال الدين السيوطى ط دار إحياء الكتـــب العربيـــة. عيسى الحلبى.

٣- أسرار البلاغة للإمام عبدالقاهر الجرجانى تحقيق محمد عبـــدالمنعم خفاجى ط. مكتبة القاهرة.

٤- الأطول للعصام ط الطبعة السلطانية ١٢٨٤ هـــ.

٥- البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى تحقيـــق الشـــيخ/ عـــادل أحمـــد عبدالموجود وآخرين ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٩٩٣م.

٦- البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق محمد أبوالفضل إبـــراهيم ط دار التراث.

٧- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادى تحقيق محمد على النجار ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط ثالثـــة ١٤١٦ هـــ ١٩٩٦م.

٨- بيان إعجاز القرآن الكريم للخطابى ضمن ثلاث رسائل فـــى إعجـــاز القرآن تحقيق: محمد خلف الله ود/ محمد زغلول سلام ط دار المعـــارف ط الرابعة.

٩- التبيان فى إعراب القرآن لأبى البقاء العكبـــرى ط مكتبـــة الـــدعوة بالقاهرة.

١٠- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط دار سحنون تونس.

١١- تفسير القرآ ن العظيم للحافظ ابن كثير ط دار التراث- القاهرة.

١٢- تفسير القرطبى ط دار الغد العربى ط أولى ١٩٨٨م.

١٣- حاشية السيد الشريف على المطول بهامش المطول ط أحمد كامل سنة ١٣٣٠هـ.

١٤- حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى ط دار صادر.

١٥- حاشية الصبان على شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ط دار إحياء الكتب العربية للبابلى الحلبى.

١٦- دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجانى تحقيق محمود شاكر، ط، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠م.

١٧- دلالة الألفاظ د/إبراهيم أنيس ط مكتبة الأنجلو المصرية ط السادسة ١٩٨٦م.

١٨- الرسالة للإمام محمد بن إدريس الشافعى تحقيق أحمد محمد شاكر ط دار الكتب العلمية- بيروت.

١٩- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى تصحيح وضبط على عبدالبارى ط دار الكتب العلمية- بيروت ط أولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٤م.

٢٠- شرح أحاديث من صحيح البخارى للدكتور/ محمد أبوموسى ط مكتبة وهبه ط أولى ١٤٢١ هـ -٢٠٠١م.

٢١- شروح التلخيص ط المطبعة الأميرية ببولاق ط أولى ١٣١٨ هـ.

٢٢- صحيح مسلم بشرح النووى ط دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان ط أولى ١٩٢٩ م.

٢٣- علوم البلاغة للأستاذ/ أحمد مصطفى المراغى ط دار القلم. بيروت.

٢٤- فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى تحقيق محب الدين الخطيب وآخرين ط المكتبة السلفية ط ثالثة ١٤٠٧ هـ.

٢٥- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لعمر بن سليمان الشهير بالجمل ط البابلى الحلبى.

٢٦- الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى تحقيق عماد زكى الباروى ط المكتبة التوفيقية بالقاهرة.

٢٧- فى ظلال القرآن للأستاذ/ سيد قطب ط دار الشروق ط الثالثة عشرة ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧م.

٢٨- الكشاف للإمام الزمخشرى ط دار المعرفة بيروت- لبنان.

٢٩- لسان العرب لابن منظور المصرى ط دار المعارف.

٣٠- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لأبن عطية تحقيق عبدالسلام عبدالشافى، ط، دار الكتب العلمية.

٣١- المطول على التلخيص لسعد الدين التفتازانى مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ؟

٣٢- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام المصرى تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ط، صبيح.

٣٣- مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى ط ونشر دار الغد العربى ط أولى ١٩٩١م.

٣٤- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، طـ دار التحرير.

٣٥- المقتضب لأبى العباس المبرد تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٥ هـ- ١٩٩٤م.

٣٦- من أسرار التعبير القرآنى د/ محمد أبوموسى ط، دار الفكر العربى ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م.

٣٧- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعى، ط، دار الكتاب الإسلامى.